الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٠٧ — ٢٢ يوليو سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 107.

Lundi-22-7-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٠٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ ربيع الثانى سنة ١٣٥٤ — ٢٢ يوليو سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــدد

١ــ محمد حافظ ابراهيم

بمناسبة ذكراه الثالثة



كان الجيل الماضى بمصر لا يزال يعيش على بقايا تخلفت من تقاليدنا الجميلة فى الجماعات والأسر ، فالناس يجرون على أثر من خلال الفتوة ، يرتاحون للندى ، ويتنافسون فى العرف ، ويهتزون للبطولة ، ويطربون للبيان ، ويجيزون على الشعر ؛ و(مناظر) الدور وأبهاء القصور تأخذ فى كل مساء زخرفها من أهل الأدب ورجال السياسة وأصحاب الجاه وأرباب الحكم ؛ وكان مدار الحديث فيها على النكتة البارعة ، والخبر الطريف ، والمسألة الدقيقة ، والبلاغة المأثورة ، يتساقطها السامرون على محض المودة ووثوق الألفة ،

فتفتق الذهن ، وتصقل الذوق ، وتوجه الميل ، وتنيل الحظوة ؛ وكانت المواهب والملكات تتفتح فى جوانب هذه الأندية فتدل على نفسها أهلَ النفوذ فيُشبلون عليها حتى تزهر وتثمر ؛ وكانت النهضة الأدبية والحركة الفكرية يومئذ فى طور الانتعاش ، تتحركان للنمو والسمو على نفحات المرصفى والبارودى والافغانى وعبده وسلمان وحمزة والشنقيطى واليازجى والمويلحى ونديم وسعد وفتحى ومصطفى وقاسم ؛ فالمجالس تُشيع حر الكلام ، والصحف تذيع بارع النقد ، والخديويون يتخذون من الأدباء ندامى ، ومن الشعراء بطانة ، حتى قر فى نفس حافظ وأندادهِ من ناشئى الشباب الطامحين أن الأدب كان سبيل الثراء (لليثى) ، وسبب المجد (لسامى) ، ووسيلة الزلفى (لشوقى) ، فتجهز لهذه الغاية بجهاز هذه البيئة ، فروى رقائق الشعر ، وجمع مقطعات الحديث ، وراض نفسه على معاناة القريض

***

كان عمر حافظ سنتين حين توفى أبوه فقيراً فى (ديروط) ، فنشأ فى مهد اليُتم والعُدم لا يجد حانياً غير أمه ، ولا كافياً غير خاله ، فجاز مرحلة التعليم الابتدائى فى ضيق وشدة ، ثم قضى بضع سنين فى طنطا متبطلا يُزجّى فراغه بالقراءة ويدفع ملاله بالقريض ، ولم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمة البأس وذلة اليتيم ، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش ، متأففاً من الناس ، متجنياً على القدر ، لا ينشئ الشعر إلا فى ذاك ؛ ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين — وكانت يومئذ مفتحة الأبواب لكل داخل — فتبلّغ من العمل بها حيناً ، حتى أسعفته الفرص فدخل المدرسة الحربية ، وهى مطمح بصره وحديث أمانيه ؛ ثم خرج منها ضابطاً إلى السودان ليشهد صلف الانجليز وضراعة المصريين ، فيثور مع إخوانه الضباط على جور المحتل وفضول الدخيل ، فينفى فيمن نُفى من السودان والجيش

عاد حافظ كما كان يضطرب فى الحياة النابية المبهمة ، لا يستريض لعمل ، ولا يستقر على أمر ، ولا يتشوف إلى غاية ، لأن طفولته الشاردة المهملة طبعته على الكسل والملل والتشاؤم والوحشة ؛ ولأن عقيدته التقليدية الخاطئة أن الشعر وحده يشغل الحياة ، ويبسط الرزق ، ويكسب الحقوق ، أحيته على نمط مسلم ابن الوليد وأبى نواس وأضرابهما ، ممن عاشوا صنائع للملوك ، وحمائل على الجوائز ، ووسائل للهو ؛ فأبى الوظيفة وهى على حبل ذراعه ، وآثر أن يعيش فى ظلال الامام محمد عبده ينتفع بجاهه ويفىء إلى رفده ، ويغشى مع ذلك أبهاء النعمة يسامر أهلها بعذب حديثه ، ويناد مهم برقيق شعره ، ثم يتطلع الحين بعد الحين إلى صِلات القصر فيحجبه عنها شاعر الأمير بحوله وقوله

ومِنْ دأب الشعراء الكاسبين بالشعر أن ينفقوا إلى حد السفه إذا عاشوا فى الحاضر كصريع الغوانى وابن هانى ، وأن يمسكوا إلى حد الكزازة إذا عاشوا فى المستقبل كأبى العتاهية والبحترى ، ومن الأولين كان حافظ !

تمتلئ يداه بالمال اليوم فيعتريه حال من البَرَم والقلق لا تنفك عنه حتى يتلفه كله قبل الغد على إخوانه الكثيرين من طرائد البؤس وصرعى الأدب ، ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكى فى لؤم الزمان ، وظلم الانسان ، وشقاء الأديب

قطع حافظ مراحل عمره على هذا المنهج البوهيمى لا يدخل فى نظام ، ولا يصبر على جهد ، ولا يرغب فى عمل ، ولا يطمئن الى تبعة ، وإنما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة ، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس ؛ وأينما كان كان الأنس الشامل ، والظرف الناصع ، والأدب الغض ، والحديث المشقق الذى يمتزج بالروح ، ويغمر بالنشوة جوانب النفس

تقوضت أسرة حافظ وهو فى المهد ، فشب وحشى الطبع مَعَرّىّ الغريزة لا يتضح فى نفسه معنى البيت ، ولا يجرى فى حسه شعور الأسرة ؛ ثم وقفت به قناعته الشاعرة عند الحد القريب من معالجة الأدب ، فقصر جهده على صوغ الشعر فى المناسبات ، وجمع النوادر للسمر ، حتى بلغ من ذلك مكاناً لا يتعلق به درك . ولكنه حين أُريد على ترجمة البؤساء ، وكتاب الأخلاق ، ووكالة دار الكتب ، أدركته علة النشأة ، فقعدت به عن التمام ، وخذلته عن الاجادة ، وشلته عن العمل . . .

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

كُفْرُ الذُّبابة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال كَليلة [1] وهو يَعِظُ دِمْنةَ ويُحذِّرُه ويقضي حقَّ الله فيه ؛ وكان دمنةُ قد داخلَه الغرورُ وزهاه النَّصر ، وظهر منه الجفاءُ والغِلظة ، ولقيَ الثعالبُ من زَيغه وإلحاده عنَتاً شديداً :

. . . واعلم يادمنة أن مازعمتَه من رأيك تاماً لا يعتريه النقص ، هو بعينه الناقصُ الذي لم يتمّ ، والغرورُ الذي تُثبت به أن رأيك صحيحٌ دون الآراء ، لعله هو الذي يُثبت أن غيرَ رأيك في الآراء هو الصحيح

ولو كان الأمر على ما يتخيَّلُ كل ذي خيال لصدق كلُّ إنسان فيما يزعم ، ولو صدَق كلُّ إنسان لكذَب كلُّ إنسان ؛ وإنما يدفعُ اللهُ الناسَ بعضَهم ببعض ، ليجيءَ حقُّ الجميع من الجميع ، ويبقى الصغيرُ من الخطأ صغيراً فلا يكبَر ، ويثبُتَ الكبيرُ من الصواب على موضعه فلا يُنتقَص ، ويصحَّ الصحيحُ مادامت الشهادةُ له ، ويفسُدَ الفاسد مادامت الشهادةُ عليه ، وما مثَلُ هذا إلا مثَلُ الأرنب والعلماء

قال دمنةُ وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن أرنباً سمعت العلماءَ يتكلمون في مصير هذه الدنيا ، ومتى يتأذَّنُ اللهُ بانقراضها ، وكيف تكون القارعة ؛ فقالوا : إن في النجوم نجوماً مذنَّبةً لو التف ذنبُ أحدها على جِرْمِ أرضنا هذه لطارتْ هواءً كأنها نفخةُ النافخ ، بل أضعفُ منها كأنها زفرةُ صدرٍ مريض . فقالت الأرنب : ما أجهلَكم أيها العلماء ! قد والله خرِفتم وتكذَّبتم ، ولا تزال الأرضُ بخير مع ذوات الأذناب ؛ والدليلُ على جهلكم هذا . — ، قالوا : وأرتهم ذنَبها . . . !

قال كليلة : وكم من مغرورٍ يُنزِل نفسَه من الأنبياء منزلةَ هذه الأرنب من أولئك العلماء ؛ فيقول : « كذَبوا وصدَقْتُ أنا ، وأخطئوا جميعاً وأصبتُ ، والتبس عليهم وانكشف لي ، وهم زعموا وأنا المستيقن . » ثم لا دليلَ له إلا مثلُ دليل الأرنب الخرقاء من هنةٍ تتحرَّك في ذنبها . وكان يُقال : إنه لا يجاهِرُ بالكفر في قوم إلا رجلٌ هان عليهم فلم يعبأوا به ؛ فهو الأذلُّ المستضعف ؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبأ بهم ، فهو الأعزُّ الطاغية . ذاك لا يخشونه فيدعونه لنفسه وعليه شهادةُ حمقه ، وهذا يخشونه فيتركون ممارضته وعليه شهادةُ ظلمه ؛ وما شرٌّ من هذا إلا هذا . وقالت العلماء : إن كنتَ حاكماً تشنق من يخالفك في الرأي ، فليس في رأسك إلا عقلٌ اسمه الحبل ؛ وإن كنتَ تقتل مَن ينكر عليك الخطأ ، فليس لك إلا عقلٌ اسمه الحديد ؛ وإن كنت تحبس من يعارضك بالنظر ، ففيك عقلٌ اسمه الجدار . أما إن كنتَ تناظر وتجادل ، وتُقنع وتقتنع ، وتدعو الناس على بصيرة ، ولا تأخذُهم بالعمى — ففيك العقلُ الذي اسمه العقل

* * *

قال كليلة : وأنا يا دمنة ، فلو كنتُ قائداً مطاعاً ، وأميراً متبعاً ، لا يُعصى لي أمر ، ولا يَرُدّ عليّ رأي ، ولا ينكر مني ما ينكر من المخلوق إذا أخطأ ، ولا يقال لي دائماً إلا إحدى الكلمتين : أصبتَ أصبت ؛ ولا يلقاني أحدٌ من قومي بالكلمة الأخرى ، رهبة من سخطي رهبةَ الجبناء ، أو رغبة في رضاي رغبةَ المنافقين ، وزعموا أنهم على ذلك قد خلص لي باطنهم جميعاً ، وصحت نياتُهم كلها — فلو كنتُ وكانوا على هذا ، لأحالني نقصهم إلى نقص العقل بعد كماله ، وردَّتني فسولتُهم إلى فسولة الرأي بعد جودته ، فأخلقْ بي أن أعتبر وضعهم إياي في موضع الآلهة هو إنزالهم إياي في منزلة الشياطين ، وإلا كنتُ حقيقاً أن يصيبني ما أصاب العنز التي زعموا لها أنها أنثى الفيل . . .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنه كان في إحدى خرائب الهند جماعةٌ من العَظَاء ، وكان فيها عَضْرَفُوطٌ كبير [1] فملَّكَتْه الجماعةُ وذهبت تأتمِرُ عن أمره وتنتهي . فمرَّ بهذه الخربةِ فيلٌ جسيمٌ

(١) كليلة ودمنة هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعي يعمد اليه حين يريد تقدير المعاني بالتمثيل والمحاورة (الرسالة)

(١) العظاء : جمع عظاءة وعظاية ، وهي هذه الدويبة التي يقال لها (السحلية) ، والعضرفوط ضرب من العظاء يكون أكبر منها

من الفيلة ، لم يُحِس بالعظاء ، ولم يُميز فرقاً بين هذه الأمة وبين الحصى منثوراً يلتمعُ في الأرض هنا وهنا ؛ فنظر المضرفوطُ كيف يصنعُ به ، وكان قائداً عظيما ، ثم تدبّر أمرَ الفيل ، فرآه لا يتحرّك إلا بأقدامه ينقلها واحدةً واحدة ؛ فقدّر عند نفسه أنه لو أزال قدم الفيل عن الأرض زال الفيل نفسُه ؛ فجاء فاعترض الطريق ، ودبّ دبيبَه إلى قدَم الفيل ؛ فلما رفع الفيلُ قدمَه اهتَبل هذه الغفلة منه ... واندسّ تحتها ، فاندسّ مقبوراً في التراب ! ثم إن العَظاء افتقَدت أميرَها . فلما مضى الفيــلُ لسبيله ، ورأتْ ما نزل بها نفَرتْ إلى أجحارها واستكنّت فيها ترتقبُ وتتربّص ؛ فدخلتْ إلى الخربة عنزٌ جعلت تتقمم منها وترتعُ فيها ، ورأتها العظاءُ فاجتمعن يأتمرن ..

فقال منها قائل : هذه أنثى الفيل . فسألتْ عظايةٌ منهن : وأين النابان العظيمان ؟

قالت الأولى : إن الاناثَ دون الذكورة في خلقها ، والأنثى هي الذكر مقلوباً أو مختصراً أو مشوّهاً ، ولذلك هن يقابلن الحياة أو يختصرنها أو يشوّهنها . أفلا ترين النابين العظيمين البارزين في ذلك الفيل الجسيم ، كيف نبتا صغيرين منقلبين فوق رأس أنثاه . . . . ؟

فقالت واحدة : إن جاز قولك في الرأي فأين الخُرطوم ؟

قالت الأخرى : هو هذه الزَّنَمَةُ المتدلّيةُ من حلقها ، وهو خرطومٌ على قدر أنوثة الأنثى . . . !

قالوا ؛ ثم اجتمع رأيهن على أن يُملِّكن أنثى الفيل هذه ؛ وأن يهَبن لها الخربة وأمّتها . وسمعت الماعزة كلامهن فقالت : لا جرَمَ أن تكون العنزُ فيلةً في أمةٍ من العظاء ، فقد قالت العلماء : إنه لا كبيرَ إلا بصغير ، ولا قويَّ إلا بضعيف ، ولا طاغيةَ إلا بذليل ؛ وإن العظَمة إن هي إلا شهادة الحقارة على نفسها ، وإنه رُبّ عظيمٍ طاغيةٍ متجبر ما قام في الناس إلا كما تقوم الحيلة ، ولا عاش إلا كما يعيش الكذب ، ولا حكَم إلا كما يحكم الخِداع . وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحده ، فمتى جاءت إليه فقد جاءت ، وإذا أدبرت عنه من ناحية رجعت من ناحية أخرى ، ليُثبتَ الحظُّ أنه الحظ

وتقدّم العَظاء إلى العنز ، فقُلن لها : أيتها الفيلةُ العظيمة ، إن قرينكِ العظيم قد مسّ أميرَنا المضرفوط بقدمه فغيبه تحت سبع أرضين ، وإننا قد اخترناكِ ملكةً علينا ، ووهبنا لك الخربةَ وما فيها

قالت العنز : فاني أتّهبُ منكن هذه الهبَة ، ونِعِمّا صنَعتن ؛ غير أن بينكنّ وبيني ما بين العظاية والفيل ، وما بين الحصاة والجبل ؛ فاذا أنا قلتُ ، فأنا قلت ؛ وإذا أنا أمرتُ ، فأنا أمرْت ؛ وإذا أنا فعلتُ ، فأنا فعلت . هنا في هذه الأمةِ كلِّها (أنا) واحدةٌ ليس معها غيرها ؛ لأن ههنا في هذا الرأس دماغ فيلة ، وفي هذا الجسم قوةَ فيلة ، وفي الخربة كلها فيلةٌ واحدة ؛ فلا أعرِفَنّ منكن غير الصواب والخطأ إلا الطاعة ، طاعة الأعمى للبصير . ألا وإن أولَ الحقائق أنني فيلةٌ وأنكن عظاء ؛ ومتى بدأ اليقين من هنا سقط الخلافُ من بيننا وبطل الاعتراض منكن ، وقوّتي حقٌ لأنها قوّة ، وباطلي كذلك حق لأنه من قوّتي ؛ وقد قال حكماءُ الفيلة : إن القويّ بين الضعفاء مشيئةٌ مطلقة ، فهو مصلحٌ حتى بالافساد ، حكيمٌ حتى بالحماقة ، امامٌ حتى بالخرافة ، عالمٌ حتى بالجهالة ، نبيٌّ حتى بالشعوذة . . . . . !

قالوا ؛ وتُنكِر عليها عظايةٌ صالحةٌ عاقلة كانت ذاتَ رأيٍ ودينٍ في قومها ، وكنّ يُسمّينها : (العِمامة) ، لبياضها وصلاحها وطهارتها ، فقالت : ولا كلُّ هذا أيتها الفيلة ؛ لقد تخرّصتِ غيرَ الحق فانك تحكميننا من أجْلنا لا من أجلك ، وما قولك إلا كلماتٌ لا يحقّقها إلا أعمالُنا نحن ؛ فَلَكِ الطاعةُ فيما يُصلحنا لا فيما يُفسِدُنا ، ورأيك شيءٌ ينبغي أن تكون معه آراؤنا ، لتتبيّنَ الأسباب أسبابُ الموافقةِ والمخالفة ، فنأخذَ عن بيّنة ونتركَ عن بيّنة ؛ وقد كان يُقال في قديم الحكمة : إنه يجب على من يقدّم رأياً للأمة الحازمة كي تأخذ به ، أو يضعُ لها شرعاً ليحملَها عليه ، أو يَسِنُّ لها سنّة لتتّبعها — يجب على هذا المتقدّم لتحويل الأمة وتحريرها أن يتقدّم لأهل الشورى وفي رأسه الرأي ، وفي عنقه حبْل ؛ ثم يتكلّم برأيه ويبسطه ويدفع عنه ، ويجادله ويجادلونه ؛ فان كان الرأيُ حقاً أخذوا الرأي ، وإن كان باطلاً أخذوا الحبل فشنقوا فيه هذا المتهوّر

وفى ديننا أن الطاعةَ فى المعصية معصيةٌ أخرى ؛ ولقد كان لنا عَـضْرفُـوطٌ بحّـاثةٌ فى الأديان دَرّاسةٌ لكتُبها ؛ فكان مما علّمنا أن المخلوق مبنيٌّ على النقص إذ هو ماضٍ إلى الفناء ، فيجب ألا يتم منه شيء إلا بمقدار ، وألا تكون القوةُ فيه إلا بمقدار ؛ ولهذا كان العقل التامُّ فى الأرض هو مجموعُ العقول كلِّها ، وكان أتمُّ الآراء وأصحُّها ما أثبتت الآراءُ نفسُها أنها أصحُّها وأتمُّها . فلا الدينَ اتبعتِ أيتها الفيلةُ ولا اتبعتِ فينا العقل

فلما سمعت العنزُ ذلك تنفّشت وغضبت ، وقالت : إياكم وهذه الترّهات من ألسنتكم ، وهذه الأباطيلَ فى عقولكم ؛ لا أسمعنّ منكم كلمةَ الدين ولا كلمةَ الأنبياء ولا العضافيط ... فذلك وحيٌ غير وحيي أنا ؛ وإذا كان غير وحيي أنا فأنا لستُ فيه ، وإذ لم أكن أنا فيه فهو لا يَصلُح للحكم الذى شرطُه أن الدولة ليس فيها إلا أنا واحدة . وذلك إن لم يجعلكم غرباءَ عنى جعلني غريبة عنكم ، ما بُدٌّ من إحدى الغربتين ، فهو أولُ القطيعة ، والقطيعةُ أولُ الفساد . وما دام فى الدين أمرٌ غير أمرى ، ونهيٌ غيرُ نهيي ، وتحليلٌ وتحريم لا يتغيّران على مشيئتى — فأنا مجنونة إن رضيتُ لكم هذا . . . !

فضحكت (النعامة) وقالت للماعزة : بل قولى : أنا مجنونة بـ . . . أنا . أفلا يجوز وأنتِ خَلْقٌ من الخلق أن يعتريَ عقلَك شيءٌ مما يعترى العقول ؟ ولسنا ننكر أنك قويةُ الرأى فى ناحية القوة ، حَسَنَةُ التدبير فى ناحية الشجاعة ، متجاوزةُ المقدار فى ناحية الحزم والحرص على مصالح الدولة ؛ ولكن ألم يقل الحكماء : إن الزيادة المسرفة فى جهةٍ من العقل تأتى من النقص المتحيّف لجهةٍ أخرى ؛ وإنه رُبَّ عقلٍ كان تاماً عبقرياً فى أمور لأنه ضعيفٌ أبلهُ فى غيرها ؛ يُحسِنُ فى تلك ما لا يُحسِنه أحد ، ويُحكِمُ منها ما لا يُحكِمه أحد ؛ ثم يغلط فى الأخرى ما لا يغلط أحدٌ فيه ؟

قالوا ؛ فجاشت العنزُ وفارت من الغضب فورةَ الجبّار ، وخيِّل إليها من عمى الغيظ أنها ذهبت بين الأرض والسماء ، وأن زَنَمَتَيها امتدّ منها خُرطومٌ طويل ، وأن قرنيها انبعج منهما نابان عظيمان ؛ وقالت : ويحكم ! خذوا هذه (النعامة) فاشنُقوها ؛ فانها كما قالت ؛ تقدّمت إلينا بالرأى والجبل . . . !

وكان فى العَظَاء ضعافٌ ومهازيلُ وجبناء ومأكولون لكلِّ آكل ؛ فتشبّح (١) لهم أن أنثى الفيل هـــذه . . . ستخلُقهم فيلةً إنْ هم أطاعوها ؛ فاذا تمرّدوا عليها فانها من صرامة البأس بحيث تجعل كلَّ ظِلْفٍ من أظلافها جبلاً فوقهم كأنه ظُلّةٌ فتسوخ بهم الأرض. ثم إنهم انخزلوا وتراجعوا وأُخِذتِ (العامة) الصالحة فشُنِقت ، وخمد الرأيُ من بعدها وانقطع الخلافُ والدِّينُ والعقلُ الحر . . . ؛ وأقبلت دولةُ العَظَاء على العنز تجرّرُ أذيالها . . . .

قالوا ؛ واغترّت الماعزة وأحسّت لها وجوداً لم يكن ، وعرفت لنفسها وهى ماعزةٌ نباهةَ شأن الفيل القويّ ، فلجّت فى عمايتها وكفرت بجنسها ، وقالت : لم يخلقنى الله فيلةً وخلقتُ نفسي ؛ فانا لا هو . . .

وثبتَ عندها أنها ليست بعنزٍ وإن أشبهتها كلُّ عنز فى الدنيا ؛ وذهبت تقلّد وتعيش على مذاهب الفيلة بين العَظَاء ؛ فاذا مشت ارتجّت وتخطّرت كأنها بناءٌ يتقلقل ، وإذا اضطجعت أنذرتِ الأرضَ أن تتمسكَ لا تدكّها بجنبها ... !

ومرّ ذلك الفيل بهذا الخراب مرّةً أخرى ، فلاذت العَظَاء كلُّهن بالفيلة . . . . وتأهّبت هذه للقتال وتحصّفت فى المبارزة والمناجزة . . . . والماعزة فنصبت قرنيها ، وحرّكت زنمتيها ، وطأطأت ، وشدّت أظلافها فى الأرض ، وثبّتت قوائمها ، وصلّبت عظامها ، ونفّشت شعرها ، وتشوّكت كالقنفذ ، وأصرّت بكل ذلك إصرارها ؛ وكانت عنزا نطيحةً منذ كانت تتبع أمها وتتلوها ، فكيف بها وقد تفيّلت . . ؟

ثم إنها ثبتت فى طريق الفيل ليرى بعينيه هـــذا الهولَ الهائل . . . فأقبل ، فمدّ خرطومه ، فنالها به ، فلفّها فيه ، فقبضه ، فرفعه ، فطوّحها ، فكأنما ذهبت فى السماء ... !

وتهاربت العَظَاء ولذن بأجحارهن ، ثم غدون على رزقهن فاذا جيفةُ العنز غيرَ بعيد ، فذببن عليها وارتعين فيها وعلمن أنها كانت ماعزة فيّلها جنونها ، وأدركن أن الكذب على الحقائق قد جعل الله له حقائقَ أخرى تقتله ، وأن من غلب

(١) أى خيل إليهم وتمثل

أمةَ العظَاء على أمرها فليست الأيام والليالى عظاء فيغلبها ؛ وأن تغيير المخلوقات إنما يكون بتحويل باطنها لا بتحويل ظاهرها ، وأن الاناء الأحمر يريك الماء محمراً والماء فى نفسه لا حمرة فيه ، حتى إذا انكسر الاناءُ ظهر كما هو فى نفسه ؛ وكلُّ ما يخفى الحقَّ هو كهذا الاناء : لونٌ على الحقِّ لا فيه ؛ ثم أيقن أن محاولة إخراج أمةٍ كاملة من نزعات ماعزةٍ مأفونة ، هى كمحاولة استيلاد الفيل من الماعزة . . . !

***

قال كليلة : واعلم يا دمنة ، أنه لولا أن هذه العنز الحمقاءَ قد كفرتْ كُفْرَ الذبابة لما أخذها اللهُ أخْذَ الذبابة

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن ذبابةً سوداء كانت من حمْقى الذِّبان ، قُدِرَت الحماقةُ عليها أبدية ، فلو انقلبتْ نقطةَ حبر لما كُتبتْ بها إلا كلمةُ سُخف

ووقعت هذه الذبابةُ على وجه امرأة زنجيّةٍ ضخمة ، فجعلتْ تقابل بين نفسها وبين المرأة ؛ وقالت : إن هذا لمن أدلِّ الدليل على أن العالم فوضى لا نظام فيه ، وأنه مرسلٌ كيف يتفق على ما يتّفق عبثاً فى عبث ، ولا ريب أن الأنبياء قد كذَبوا الناس ؛ إذ كيف يستوى فى الحكمة خَلْق (أنا) وخَلْقُ هذه الذبابة الضخمة التى أنا فوقها . . . ؟

ثم نظرتْ ليلةً فى السماء ، فأبصرت نجومها يتلألأن وبينها القمر ؛ فقالت : وهذا دليلٌ آخر على ما تحقق عندى من فوضى العالم وكذبِ الأديان وعبثِ المصادفات ؛ فما الايمان بعينه ، إلا الالحاد بعينه ، ووَضعُ العقل فى شىء هو إيجادُ الألوهية فيه ، وإلا فكيف يستوى فى الحكمة وضعى (أنا) ورفعُ هذا الذِّبان الأبيض ويَسمُوبه الكبير إلى السماء . . . ؟

ثم إنها وقعتْ فى دار فلاّح ، فجعلتْ تمور فيها ذهاباً وجيئة حتى رجعتْ بقرةُ الفلاّح من مرعاها ؛ فبُهتتِ الذبابةُ وجدَتْ على غُرّتها من أوّل النهار إلى آخره ، كأنها تزاولُ عملاً ؛ فلما أمستْ قالت : وهذا دليلٌ أكبرُ الدليل على فوضى الأرزاق فى الدنيا ، فهاتان ذبابتان قد تقَبتا ثقبين فى وجه هذه البقرة وا كْتنَّتا فيهما تأكلان من شحمها فتَعظُمان سِمَنا ؛ والناس من جهلهم بالعلم الذُّبابىِّ يسمُّونهما عينين . . . . وأنا قضيتُ اليومَ كلّه أخمِشُ وأعضُّ وألسع لأثقبَ لى ثقباً مثلهما فما انتزعتُ شعرة ؛ فهل يستوى فى الحكمة رزق (أنا) ورزقُ هاتين الذبابتين في وجه البقرة . . . ؟

ثم إنها رأت خُنفُساء تدبُّ دبيبها فى الأرواث والأقذار فنظرتْ إليها وقالت : هذه لا تَصلُح دليلاً على الكفر ؛ فانى (أنا) خيرٌ منها ؛ (أنا) لى أجنحة وليس لها ، (وأنا) خفيفة وهى ثقيلة ؛ وما كأنها إلا ذبابةٌ قديمة من ذُباب القرون الأولى ذلك الذى كان بليداً لا يتحرَّك ، فلم تجعل له الحركةُ جناحاً . ثم إنها أصغَتْ فسمعتْ الخنفساءَ تقول لأخرى وهى تحاورها : إذا لم يجد المخلوق أنه كما يشتهى فليكفُر كما يشتهى ؛ ياوَيحَنا ! لِمَ لمْ نكن جاموساً كهذا الجاموس العظيم ، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وَجَدَ من ينفُخُه ولم نجد . . . ؟

فقالت الذبابة : إن هذا دليلُ العقل فى هذه العاقلة ، ولعمرى إنها لا تمشى متثاقلةً من أنها بطيئةٌ مرهقةٌ بعَجزها ، ولكن من أنها وقورٌ مثقلةٌ بأفكارها ، وهى الدليل على أنى (أنا) السابقةُ إلى كشف الحقيقة . . . !

وجعلت الذبابةُ لا يُسمَعُ من دندنتها إلا : أنا ، أنا ، أنا ، أنا . . . . من كُفْرٍ إلى كفرِ غيره ، إلى كفر غيرهما ؛ حتى كأن السماوات كلَّها أصبحتْ فى معركةٍ مع ذبابة ... ...

ثم جاءت الحقيقةُ إلى هذا الالحاد الأحمق تسعى سَعْيها ؛ فبينا الذبابةُ على وجه حائط ، وقد أكلت بعوضةً أو بعوضتين ، وأعجبتها نفسها ، فوقفت تحكُّ ذراعها بذراعها — دنت بَطةٌ صغيرة قد انفلقت عنها البيضةُ أمس ، فمدّت منقارها ، فالتقطتها . ولما انطبق المنقارُ عليها قالت : آمنتُ أنه لا إله إلا الذى خلق البطة . . . . ! ! ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

إلى (.....) المجهولة :

اشكرك ياسيدتى ، وكل ما صنعته فهو خير ما كنت صانعة . وسأكتب إن شاء الله فى موضوعك بعد فترة من الزمن ، ولكن إياك والخاطر الذى خطر لك فانك تربحين به عشرة ، وتخسرين عشرات . . . . الرافعى

التراث المنسي

مسالك الأبصار

ومؤلفه الشهاب العمري

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في سنة ١٩٢٤ أخرجت دار الكتب المصرية الجزء الأول من أثر ضخم ، هو كتاب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري ، وذلك باشارة المغفور له العلامة الأستاذ أحمد زكي باشا وبتحقيقه . ثم وقف مشروع اخراج الكتاب في مستهله لأسباب نجهلها حتى اليوم ، ولكنا علمنا أخيراً أن دار الكتب قررت استئناف العمل في « مسالك الأبصار » واخراجه تباعاً إلى جانب الآثار القديمة الأخرى التي تعنى بنشرها

وهو نبأ يستقبله الباحثون والأدباء بمنتهى الغبطة . ذلك أن « مسالك الأبصار » من الآثار الاسلامية الضخمة التي تمتاز بغزارة مادتها وتنوع موضوعاتها ونفاسة معلوماتها ؛ وهو ثالث ثلاثة من الموسوعات العربية المصرية الضخمة ، التي كتبت في عصور متقاربة ، وامتازت على جميع الآثار الاسلامية بضخامتها وتنوعها وطرافتها ؛ وهي : مسالك الأبصار ، ونهاية الأرب للنويري ، وصبح الأعشى للقلقشندي . وقد أخرجت لنا دار الكتب « صبح الأعشى » كاملاً في أربعة عشر مجلداً ، وأنجزت لنا من نهاية الأرب نحو ثلثه في احد عشر مجلداً ، وما زالت ماضية في اخراجه ، وبقي عليها أن تستأنف العمل في ثالثة هذه الموسوعات الكبرى ، ونعني « مسالك الأبصار »

كان القرن الثامن الهجري في مصر عصر الموسوعات الأدبية والتاريخية العامة ؛ وإذا لم تكن فكرة الموسوعات الجامعة في الأدب العربي مصرية محضة ، فقد بلغت ذروتها على الأقل في مصر ، وأخرج الكتاب المصريون أعظم وأبدع نماذجها . وكان شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري هو أول كتاب الموسوعات ورأس هذه المدرسة الغزيرة الباهرة (٦٦٠ — ٧٣٢ هـ)

وقد وضع لنا موسوعته الفريدة « نهاية الأرب في فنون الأدب » في أوائل القرن الثامن الهجري في أكثر من ثلاثين مجلداً كبيراً ، فجاءت أثراً ضخماً لم تشهد مثله الآداب العربية من قبل في غزارة المادة وتنوع الموضوعات وطرافة الأوضاع ؛ ثم تلاه العمري الذي نريد أن نتحدث اليوم عنه وعن مجهوده ، بوضع موسوعته « مسالك الأبصار » ؛ وجاء القلقشندي ليختتم هذا الثبت في أوائل القرن التاسع بوضع موسوعته « صبح الأعشى »

كان العمري دمشقي المولد ؛ ولكن مصري التربية والوطن والتكوين ؛ وهو شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله أحمد بن يحيى ؛ وينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب ، ومن ثم كان تلقيبه بالعمري . ولد في ثالث شوال سنة سبعمائة (١٣٠٠ م) ، وتلقى تربيته الأولى في دمشق ؛ ثم وفد على القاهرة حدثاً ودرس بها واتخذها وطناً وموئلاً ، ومال إلى التخصص في علوم الفقه واللغة ، وبرع بالأخص في الكتابة والانشاء ، وتقلد في البلاط القاهري عدة مناصب هامة أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون في ولايته الثالثة (٧٠٩ — ٧٤١ هـ) وانتهى إلى تقلد ديوان الانشاء والرسائل ، فاستحدث فيه كثيراً من الأساليب والأوضاع البديعة ، ووضع له دستوراً لبث عمدة الكتاب والسلاطين مدى عصور

ولبث العمري إلى جانب اضطلاعه بأعباء المناصب العامة رجل البحث والدرس ؛ وعني عناية خاصة بدرس الجغرافية الطبيعية والسياسية أو الممالك والمسالك وطبائعها وخواصها ؛ ودرس تواريخ الأمم وأحوالها وعجائبها ، ولاسيما أمم الشرق النائية مثل أمم التتار والهند والصين ، ودرس الفلك أيضاً ، ولم يكتف في درسه بقراءة المصادر والمصنفات القديمة ، ولكنه قرن الدرس النظري بنوع من الدراسة العملية ، فتجول في أنحاء الشام والأناضول والحجاز وبعض الممالك الاسلامية الأخرى ، حسبما يبدو ذلك في أكثر من موضع من سياق موسوعته ، وحسبما يشير اجمالاً في مقدمته [1] ، واستعان في تعرف أحوال الأمم والممالك التي لم تتح له زيارتها بأقوال العارفين والثقاة ممن زاروها أو درسوا أحوالها دراسة خاصة [1] ، حتى اجتمعت له من ذلك

(١) راجع الجزء الأول من « مسالك الأبصار » (طبع دار الكتب) ص ٢

مادة غزيرة تمتاز فى كثير من الأحيان بدقتها وطرافتها

وقد تبوأ العمرى إمامة البلاغة والبيان والترسل فى عصره حتى أن الصفدى معاصره وصديقه يفضله فى هذا الفن على القاضى الفاضل ، ويصف خلاله ومواهبه الأدبية فى تلك العبارات البليغة : « يتدفق بحره بالجواهر كلاماً ، ويتألق انشاؤه بالبوارق المستعرة نظاماً ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاماً وصياغة ، وينظر إلى غيب المعانى من ستر رقيق ، ويغوص فى لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، قد استوت بديهته وارتجاله ، وتأخر عن فروسيته من هذا الفن رجاله ، يكتب من رأس قلمه بديهاً ما يعجز القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيهاً ، وينظم من المقطوع والقصيدة جوهراً يُخجل الروض الذى باكره الحيا مُزهراً ، صرّف الزمان أمراً ونهياً ، ودبر الممالك تنفيذاً ورأياً ، ووصل الأرزاق بقلمه ، ورويت تواقيعه وهى سجلات لحكمه وحكمه ، لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه » . ثم يصفه الصفدى بعد ذلك بالأديب « الكامل » وينوه بقوة ذاكرته ، وحسن ذوقه ، ويقول لنا إنه ، أى العمرى ، كان آية فى النثر والنظم والترسل البارع عن الملوك ، وأنه « لم يرَ من يعرف تواريخ الملوك المغل من لدن جنكيزخان معرفته ، وكذلك ملوك الهند والأتراك . وأما معرفته الممالك والمسالك ، وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها ، فانه فيها امام وقته »(١)

ولأقوال الصفدى ، وهو إمام النقد فى عصره ، قيمتها فى التنويه بخلال العمرى الأدبية ، والعلمية الفائقة . بيد أن تراث العمرى نفسه مازال خير شاهد بعبقريته ولا سيما فى فن الانشاء والترسل ، وقد كان العمرى فوق ذلك شاعراً مجيداً ؛ ومن رقيق شعره قوله :

أأحبابنا والعذر منا اليكمو ... إذا ماشغلنا بالنوى أن نودعا
ابثكموا شوقاً أبارى بيمضه ... حمام المشايا رنة وتوجعا
أبيت سمير البرق قلبى مثله ... أقضى به الليل التمام مروعا
وما هو شوق مدة ثم ينقضى ... ولا أنه يلقى محباً مفجعا
ولكنه شوق على القرب والنوى ... أغص الأماقى مدمعاً ثم مدمعا
ومن فارق الأحباب فى العمر ساعة ... كمن فارق الأحباب فى العمر أجمعا

وقطع العمرى حياة قصيرة ولكن باهرة ؛ وتبوأ ذروة المناصب العامة ، كما تبوأ إمامة التفكير والأدب ، واستمرت حظوته لدى الملك الناصر طوال عهده ؛ ثم توفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) دون أن يبلغ الخمسين

— ٢ —

ترك لنا العمرى تراثاً حافلاً ينم عن غزارة مادته ورفيع مواهبه ، منه موسوعته الكبرى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » و « الدعوة المستجابة » و « صبابة المشتاق » وهو فى المدائح النبوية و « سفرة السفرة » و « دمعة الباكى » و « يقظة الساهر » و « نفحة الروض » وكلها من كتب الأدب والبيان ، وكتاب « فواضل السمر فى فضائل آل عمر » وكتاب « الشتويات » وهو رسائل فى الشتاء و « النبذة الكافية فى معرفة الكتابة والقافية » وكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو مجموعة نماذج من الرسائل الملوكية والأميرية ، وسنعود اليه ؛ وطائفة كبيرة من القصائد والموشحات والتقاليد والمناشير (١)

وقد انتهى الينا من هذا التراث أهمه وأنفسه ؛ فلدينا أولا كتاب « مسالك الأبصار » وهو أهم آثار العمرى وأضخمها ؛ وهو فى الواقع موسوعة كبرى تملأ عشرين مجلداً كبيراً (٢) ، ويقول لنا العمرى إنه أثر الحياة وإنه « قطع فيه عمر الأيام والليالى » وإنه شرع فيه أيام التحاقه بخدمة الملك الناصر ؛ وقد يكون ذلك حوالى سنة ٧٣٠ هـ ؛ ويبدو من مقدمته أيضاً ومن دعائه للملك الناصر بدوام أيامه ، أنه أنجز نسخته الأولى قبل سنة ٧٤١ هـ أعنى قبل وفاة الناصر (٣) ، بيد أنه يبدو من جهة أخرى أنه زاد فيه بعد ذلك لأنه يصل فى رواية الحوادث إلى سنة ٧٤٣ هـ

ومن المحقق أن العمرى تأثر فى وضع موسوعته بمثل سلفه

(١) راجع ترجمة العمرى فى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى (ج ١ ص ٧ و ٨ و ٩) وقد نقلها جميعاً من معجم الصفدى « أعيان النصر وأعوان العصر » وهو ما يزال مخطوطاً

(١) فوات الوفيات — ج ١ ص ٨

(٢) فى دار الكتب نسخة فتغرافية كاملة لمسالك الأبصار (رقم ٢٥٦٨ تاريخ) وتقع فى ٤٣ مجلداً أو قسما ، والفضل يرجع فى استنساخها لدار الكتب إلى المرحوم العلامة أحمد زكى باشا

(٣) راجع مسالك الأبصار — ج ١ — ص ٦

العظيم النويرى صاحب موسوعة « نهاية الأرب » وهى أول موسوعة من نوعها . غير أنه ينحو فى تقسيمها ومحتوياتها نوعاً آخر ؛ وبينما يسبغ النويرى على موسوعته صبغة علمية أدبية تاريخية ، إذا بالعمرى يسبغ على موسوعته صبغة جغرافية تاريخية ، وهو يقسمها إلى قسمين كبيرين : الأول : « فى الأرض » والثانى « فى سكان الأرض » ، ويشمل القسم الأول ذكر الأرض وما اشتملت عليه براً وبحراً ، وهو نوعان كبيران : المسالك والممالك ، ويدخل فى النوع الأول الكلام على أحوال الأرض وصفاتها وعناصرها وما تحتويه من أنهار وجبال ثم الكلام على الأقاليم السبعة وهى أساس الجغرافية القديمة وما فيها من المدن والجزائر وما يؤثر عنها من العجائب ، ثم الكلام عن الرياح والكواكب والاعراض الطبيعية ؛ ويدخل فى القسم الثانى الكلام عن ممالك العالم المعروف يومئذ مبتدئاً بممالك الهند والسند والتتار ثم الترك ومصر والشام والحجاز واليمن ، ثم ممالك السودان والحبش وإفريقية والأندلس ، وفيه بيانات ضافية عن أحوال هذه البلاد ونظمها وخواصها ومحصولها وحيوانها ؛ ويبدى العمرى هنا دقة البحث والتحرى ، ويقدم إلينا أسانيده ومصادره كلما شعر بمبالغة أو غرابة فيما يروى . ويختتم هذا القسم بالكلام عن العرب الموجودين فى عصره وأماكن وجودهم ولا سيما فى مصر ، وهو فصل له قيمته فى تعرف الأصول والأنساب . ويشغل هذا القسم الأول من الكتاب نحو عشرة مجلدات

ويتناول القسم الثانى الكلام على سكان الأرض من طوائف الأمم وفيه حديث مستفيض عن طوائف العلماء فى الشرق والغرب ، ثم الكلام على الأديان والنحل المختلفة ؛ وبعدئذ يجئ الكلام على التاريخ ، وهو قسمان ، تاريخ الدول التى كانت قبل الإسلام ، ثم تاريخ الدول التى قامت بعد الاسلام حتى عصر المؤلف ، ويستطرد فيه إلى ذكر الحوادث حتى سنة ٧٤٣هـ أعنى قبل وفاته بنحو خمسة أعوام

ولم ينشر إلى يومنا من كتاب « مسالك الأبصار » سوى الجزء الأول كما قدمنا ؛ غير أنه قد نشرت منه بعض فصول ونبذ متفرقة منها فصل من فصول القسم الأول عنوانه « كلام إجمالى فى أمر مشاهير ممالك عباد الصليب فى البر دون البحر » نشره المستشرق أمارى (سنة ١٨٨٣) مقروناً بترجمة إيطالية ، وهو فصل يمتاز بدقته وطرافته ويتناول الحديث عن أحوال الممالك النصرانية والجمهوريات الايطالية فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، وينسب العمرى ما أورده فيه من المعلومات إلى رجل إيطالى يدعى « بلبان الجنوى » عرفه فى بعض رحلاته واستقى منه معلوماته وهى معلومات فى منتهى الدقة ولا سيما ما تعلق منها بنظم الجمهوريات الايطالية فى ذلك العصر . وعني صديقنا العلامة السيد حسن حسني عبد الوهاب بنشر الفصل الخاص بوصف افريقية والأندلس ؛ ونشر أحد المستشرقين الألمان أخيراً الفصل الخاص بوصف بلاد الأناضول

— ٣ —

على أنه قد انتهى إلينا من تراث العمرى أثر ذو أهمية خاصة هو كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » . وقد كان العمرى كما رأينا مدى أعوام طويلة ناظراً لديوان الانشاء والرسائل ، وقد استحدث فى هذا الديوان كثيراً من الأساليب والأوضاع الجديدة سواء فى توجيه الرسائل والمخاطبات أو صيغها ؛ ويجب أن نعلم أن ديوان الانشاء كان فى تلك العصور مجمع المراسلات الداخلية والخارجية ، فمنه تصدر الرسائل والمناشير والأوامر والتواقيع إلى الأمراء والحكام وكبار الموظفين ؛ ومنه توجه الرسائل الخارجية إلى مختلف الملوك والدول التى ترتبط بمصر بعلائق سياسية أو تجارية ؛ وإذا فقد كان اختصاصه يتناول ما يسمى اليوم فى لغة السياسة الحديثة بنظم « البروتوكول » ، وهى عبارة عن الرسوم والاجراءات التى تجرى عليها الدولة فى تنظيم علائقها الخارجية ، سواء فى إجراء المفاوضات السياسية أم فى عقد المعاهدات أو مخاطبة الدول الأخرى أو استقبال ممثليها ومعاملتهم أو فى تحرير المكاتبات الدبلوماسية . وتسمى هذه الرسوم والنظم فى الدولة الاسلامية « بالمصطلح الشريف » . وقد كان للعمرى أكبر الفضل فى تجديد هذه النظم ، وعلى يده بلغت ذروتها من الافتنان والتناسق والدقة ؛ وللتعريف بهذه النظم وشروحها وضع العمرى كتابه « التعريف بالمصطلح الشريف »(١) وفيه يشرح رتب المكاتبات السلطانية وإجراءاتها ، ويعرض نماذج من العهود والتقاليد والتفاويض والمراسيم والمناشير وكذلك نماذج عديدة من الوثائق والمكاتبات الدبلوماسية ؛ ثم يتحدث

(١) وقد طبع بمصر أكثر من مرة

عن أوضاع الممالك وتقاسيمها الادارية ، وعن مراكز البريد ووسائل المواصلة البحرية . ويعتبر كتاب العمرى دستور المصطلح الشريف فى مصر الاسلامية ؛ ويعتبره القلقشندى صاحب صبح الأعشى أنفس الكتب المصنفة فى هذا الباب[1] . وقد انتفع به القلقشندى فى موسوعته أعظم انتفاع ، ونقل إلينا فوق ذلك طائفة كبيرة من الرسائل والمكاتبات السلطانية التى دبجت بقلم العمرى فى ظروف ومناسبات مختلفة ، وكلها دليل على ما كان يتمتع به العمرى من المواهب الانشائية السامية

وللعمرى آثار ورسائل أخرى كما قدمنا ، ولكن معظمها لم يصل إلينا ، وما يزال بعضها بعيداً عن التداول فى بعض المكاتب الأوربية . على أن « مسالك الأبصار » يبقى دائماً أعظم آثاره ؛ ورجاؤنا أن تعمل دار الكتب المصرية لأخراجه بهمة مضاعفة فلا تمضى أعوام قلائل حتى تضمه كاملاً بين أيدى الباحثين

محمد عبد الله عنان

(١) راجع صبح الأعشى ج ١ ص ٧

خواطر وأفكار

للأستاذ أديب عباسى

يغلب أن يسيطر على الحياة فى كلا عنصريها من السعادة والشقاء قانون المرجّحات العام الذى يسيطر على جميع حوادث الطبيعة ويسير بها جميعاً ، كلما امتدّ الزمن وتوالى الحدوث ، إلى التعادل والاستواء ، ومانرى من فروق شاسعة بين حظوظ الناس من السعادة والشقاء سببه — فيما نرى — قصر مدى التجربة والاختبار . وأعتقد أن لو أتيح للأحياء من الناس عمرٌ أطول ، أو لو كانت أمواج السعادة والشقاء وأصداء اللذة والألم أقل لبثاً وأقصر مكثاً ، لتدانى من التعادل نصيبُ كل امرىء من حظى السعادة والشقاء

***

حياة كل امرىء « متوالية » من الآمال والآلام والأحلام والأعمال . ولست بمستطيع أن تجرّد الحياة حلقةً واحدة من هذه الحلقات : الآمال تثير الآلام والأحلام ، والأحلام لابد مفضية فى نهاية الأمر إلى الأعمال ، والأعمال بدورها تبتعث آمالاً جديدة ، والأمل الجديد يثوّر آلاماً وأحلاماً جديدة ، وهكذا تظل تدور بين حدّين من الأمل والعمل يتوسطهما واسطان هما ما نألم وما نحلم إلى أن تتلاءماً علينا القبور ، وتُرَصُّ علينا الجنادل والصخور

***

ليس مما يُنقص قيمة العمل الطيب أن يكون حاديه ورائده اللذة منشودةً أو حاصلةً ، بل نحن نعتقد أن من مصلحة الأخلاق ، ومن الخير العميم للناس أن يتعلم الناس كيف يستشعرون السعادة ويتذوّقون الغبطة فى العمل الطيب بدءاً وختاماً ، حساً وخيالاً . كذلك نعتقد أن من مصلحة الأخلاق ونشر الفضيلة وتعميم الصلاح أن يشعر المرء أن عمل الخير مجزيٌّ عليه فى هذه الحياة الدنيا ، وأن ليس على المرء يصنع الخير أن ينتظر إلى اليوم الأخير ليثاب على عمله الصالح وينال جزاء ما قدّم من خير وأسلف من صلاح

يكاد يكون الاحساس بالحق ونصرة العدل من فطرة البشر ومن هنا نرانا — فى الأحوال العادية — نهلّل للعدل ونمقت الجور ، سواء أكنا نحن المعنيين بالجور والعدل أم كان المعنى غيرنا

***

من غرائب الطباع امرؤ يثنى عليك بما أنت أهله أو بما لست أهلاً له ، ثم تراه لغير سبب واضح أو علة مقبولة ينقلب عليك ، ولا يتعفف أن يهجوك بعكس ما كان يمتدحه فيك ! هذا الصنف من الناس هم ، فى اعتقادى ، من المتسوّلة الجبناء الذين يستجدون امتداح الناس بامتداحهم الناس ؛ فاذا خاب ما يؤملون ، ولم يبادلهم ممدوحوهم مدحاً بمدح انقلبوا قادحين مشنعين

***

ما أشبه بناء الأمة ببناء الهرم ؛ ما يزال قائماً ثابت الاتزان ، ما شغل الرأس منه مكان الرأس ، والقاعدة مكان القاعدة ؛ وما أسرع ما ينهار الهرم ويتفكك حينما تنقلب الأوضاع فتسمو القاعدة إلى مكان الرأس ، ويهبط الرأس إلى مكان القاعدة ؛ ومن هنا أضحى الهرم المقلوب مضرب المثل فى سخافة البناء ووهن الثبوت . . . .

***

لست أدرى أى خير وأية سعادة كانا يصيبان البشر لو أقصى من مجال الدين جميع المتَّجرين به . فليتق الله المتاجرون وليجعلوا فى غير مجال الدين تجارتهم

***

تظل تجربة المرء ناقصة مالم تتكرر . . .

***

خصومتك الصغير تورثك المهانة ، سواء أكنت المنتصر فى هذه الخصومة أم كنت الخاسر

***

الأغراب والتكلف فى أساليب الحياة والأخلاق دليل على فساد الطبع والتواء التكوين

***

قد تكون المحافظة على القديم ناجمة من خوف الحديث وحسب ، لا من حب للقديم صحيح

***

ثم صنف غريب من الكتّاب والمفكرين يعمدون إلى الرأى الواهن الواهى ، أو الفكرة الميتة يثيرون حولها حرباً شعواء ويوسعونها طعناً وضرباً ، ثم يلتفتون إلى الناس ولسان الغرور يقول : انظروا ماذا صنعنا وإلى أى المقاتل قد نفذ سلاحنا ؟ وقد نسوا - حفظهم الله وكلأهم - أن سلاحهم يُجرد على موتى ويُشرع على أشلاء

***

قد يعيش الكاتب بشهرته الأدبية أعواماً بعد أن يُصفى . وهذا سرُّ ما نراه من مدح يكال وتقدير يُسرف فى توزيعه على أناس لا يستحقون بعض أبعاضه . والحقيقة أن من الكتاب اليوم من يعيشون بقوة الاستمرار وحسب ، لا بقوة العمل وصدق الانتاج

***

ما أسرع ما يلتفُّ صغار النفوس حول صغير النفس ، أما كبير النفس فلا يسمح لهم بالدنو منه لئلا تعلق به من نتنهم عالقة .

الاتجار بالوطنية فى الشرق علة مستحكمة لا يزيلها إلا صرامة النقد ، وصراحة المقت ، وقسوة التشهير

***

يموت العظيم فى الغرب ، ولكن ما أسرع ما تُسدُّ الثغرة ويقوم الخلف . ويموت العظيم الشرق فيظل محله خالياً جيلاً أو أجيالاً . وذلك أن تربيتنا الاجتماعية الناقصة لا ترفع إلى مستوى الزعامة الصحيحة القوية فى الجيل الواحد إلا نفراً قليلاً جداً ، فاذا أودى هذا النفر ظلّ محلهم خالياً إلى أن تتمخض الأمة بعد حمل طويل وآلام مبرحة وتجارب شاقة فتلد المولود الجديد الذى يُقدَّر له أن يستأنف السير ويتولى القيادة

***

قد يعمد الرجل الشرير إلى بعض الخير يصنعه ليتبين كيف يكون أثر ذلك ، كما قد يسعى الرجل الطيب إلى بعض الشر يصنعه لمثل غرض الشرير فى صنعه الخير . وإلى هذا قد يُردُّ بعض ما نراه من شذوذ فى الخلق السوى

***

قد يبدو الفكر العميق للقارئ السطحى الضحل متناقضاً ، وذلك ان ذا الفكر العميق قد ينتهى إلى أغوار لا يستطيع أن ينفذ إليها ضحل التفكير ، ويدرك من العلائق والوشائج الخفية بين الأشياء مالا يدركه ذو الفكر الرقراق الذى لا غور له

***

المصادفة بليغة الأثر فى حياة الفرد ، أما فى حياة الأمة فهى ضئيلة الأثر أو لا أثر لها البتة

***

ما من رأى إلا ودار فى أكثر من ذهن واحد ، ولكن شخصاً واحداً يكتب له أن يخلّد هذا الرأى

***

الرأى يرتأى كالصدى يكثر تجاوبه كلما استوعر طريقه

***

الألم كالنار يصهر القوى ولكن لا يلاشيه ، كما لا تلاشى النار الحديد ، أما الضعيف فيحيله الألم دخاناً يصّاعد

***

قد يتصدى المرء أحياناً للرأى العام لا ليتحدّاه ، إنما هو يتصدى له ليدرك مبلغ قوته ثم ليدرك مدى الرأى العام ومجراه ، فيحوّل شراع العمل على هواه

***

الرجل القوى حق القوة لا يخلق بهذه القوة عبيداً وآلات

ناطقة ، إنما يخلق بها رجالاً أقوياء . وكل مظهر من مظاهر القوة لا يفضى الى هذه النتيجة يجب أن يشككنا فى هذه القوة

* * *

يجب أن ندخر خصومة الصراحة وجهد المقاومة للأمور الجسام والمسائل العظام . أما الصراحة العادية فى كل ما يعرض للمرء من شؤون الحياة اليومية تافهها وجليلها على السواء فجهد غير مبرور وعمل غير مشكور ، ولا يعود على المصارح منه إلا خصومات لا تنتهى وعداوات لا تنقضى

* * *

ما تزال المرأة طفلة حتى تحب ، وما يزال الرجل رجلاً حتى يحب . ومتى أحبت المرأة بلغت أوج الأنوثة ؛ أما الرجل السليم القوى فينذر أن يجعل الحب آخر مرحلة من مراحل الحياة ، وهو – أى الحب – عند الرجل مرحلة الى رجولة أسمى . فالمرأة تتجه الى الحب لا لتتعداه ، أما الرجل فيحب ليكون الحب مرحلة من مراحل حياته . وهذا يشير الى أن الحياة تريد من المرأة الحب فقط ، وتريد من الرجل فضلاً عن الحب الجهاد والمغامرة

* * *

يجب ألا يغرّ الشبان بيت شوقى « نظرة فابتسامة . . » ثم ما بعد ذلك . فبين النظرة والابتسامة – فى كثير من الأحيان – وبين قلب الفتاة سبعُ قلاع بسبعة أسوار

* * *

رُكِّب فى طبيعة المرأة التلويح من بعيد والاغراء . فهى قد تتبذّل أحياناً ولو لم تنوِ السقوط ، وتدنو ولكن لا لتصل ، وتقترب ولكن لا لتُنيل . فكأنها تعمد الى ذلك لتقيس مقدار فتنتها وتختبر قوة أنوثتها

* * *

الرجولة لا تكون كاملة إلا إذا خالطها بعض طبائع الأنوثة . فكأن الطبيعة فى ذلك لا تريد للرجل أن يتخلص من إرث الأنوثة الأقدم ، حينما كانت الذكورة لا تزال فى ضمير الغيب ، وكانت الأنوثة كل ما فى يد الطبيعة من مواد التجريب والاختبار

* * *

ثورة الحب تفضى الى أسر الزواج ، وثورة الحقد والطمع تفضى الى أسر السجن

* * *

نداء الأمومة عند المرأة أقوى من نداء الحب . وكثيراً ما تضحى المرأة بحبها فى سبيل الأمومة السالمة والنسل القوى القويم

* * *

لا يستطيع إبليس – فى كثير الأحيان – أن يتراءى للرجل الا عن طريق المرأة . فهى – فى أغلب الأحيان – سفيره اليه . وكثيراً ما تنجح هذه السفارة كما نجحت من قديم فى جنات عدن

* * *

حياة المرأة أنشودة يتناوب انشادها الملائكة وإبليس

* * *

حب الأم أشرف أنواع الحب وأعمقه وأدومه . وذلك أن فيه من حب الأبنة وحب الأخت وحب العاشقة وحب العابدة . فالأم إذ تحب وليدها وترأمه لا تحبه وترأمه كوليد فقط ، إنما هى ترأمه وتحبه ، ولو فى غير شعور ، حبَّ الأبنة أبوها ، والأخت أخاها ، والعاشقة عاشقها ، والعابدة معبودها

* * *

من مظاهر الفُسُولة وصَغَار الرجولة أن يتعشّق الفتى فتاته ، ثم لا يفتأ يعلن عن هذا العشق وينبّه اليه فى كل مناسبة وعند كل حديث ؛ فكأنه الكلب يلغ فى الاناء أو يبول فيه لينفّر منه بقية السباع !

* * *

فى الزمان غير المحدود والمكان غير المحدود يكون احتمال الحدوث غير محدود أيضاً . ولا أدرى لم يستبعد أو ينفى حدوث حادث يقدر أو يفترض بحجّة بُعد الاحتمال

أديب عباسى

٥ - النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

الحروف اللاتينية والألفاظ العربية

وقد عجل الكماليون فى انفاذ قانون الحروف اللاتينية ، واشتدّوا فى ذلك لا يستثنون الكتب التى فى المطابع ، قد طبع بعضها بالحروف العربية ولما يتم طبعها ، فسارع بعض المؤلفين إلى إكمال كتبهم قبل الموعد المحدود ، ودون الكمال المنشود . ويئس آخرون أن يُتموا كتبهم قبل الأجل المضروب وكرهوا بل عجزوا أن يكملوها بالحروف الجديدة فيجعلوها ذات خطين أعجمى وعربى ، فوقفوا بها حيث وقف بهم القانون الجديد . وأعجب ما فى هذا أن أحد الأدباء الكبار كان يطبع معجماً كبيراً وأخرج منه مجلدين ، ولم يسوّغ له القانون أن يكمله بالحروف العربية فيما يحتاج إليه من وقت ، وعجز هو وعجز الفكر الانسانىّ أن يكمل هذا المعجم بالحروف اللاتينية على ترتيبها بعد أن طبع معظمه بالحروف العربية على ترتيبها فبقى ناقصاً حائراً بين القديم والجديد

كأنما محا الترك العثمانيون من تاريخهم ستة قرون حين اختاروا للغتهم الحروف اللاتينية . فهل هم يعترفون ، كما قال ذلك الأديب الفارسىّ ، أن لهم تاريخاً لا يضيرهم أن يمحى منه ستة قرون ؟ وليت شعرى هل لهم فى التاريخ غير هذه القرون الستة ؟

مثّل لنفسك صبياً تركياً ممن تعلموا القراءة بالحروف الجديدة يدخل اليوم جامع الفاتح أو سليمان فينظر إلى أسماء الصحابة فلا يدرى ما هى وينظر إلى اسم الفاتح واسم سليمان القانونى فلا يدرك منهما حرفاً . وتصوّره فى بروسه فى أولو جامع (الجامع الكبير) الذي جعل الخطاطون الترك على مر العصور جُدُره معرضاً لبدائع الخط وفنونه ، تصوّره ينظر إلى آثار أسلافه فلا يتبين منها شيئاً ، ويود لو كتبت بالحروف اللاتينية . وتصوره كذلك أمام كل أثر عظيم من آثار المسلمين . وتصوره وقد شبّ وقوى على الدرس والبحث يذهب إلى مكتبات استانبول فيرى من آثار أسلافه ، وكل المسلمين أسلافه ، أكداساً لا يفقه منها حرفاً إلا بدرس خاص . ألست ترى هذا الناشئ مقطوعاً من تاريخه ، غريباً عن قومه ، ألست تراه يتيماً حرم ميراث آبائه ، وجنى عليه سفه أو صبائه ؟

وقد ذهب مع الحروف العربية فن جميل بلغ فيه الترك الغاية ، وتنافس فى تجويده سلاطينهم وأمراؤهم وكبراؤهم فأتوا فيه بآيات الجمال وحلى التاريخ ؛ وشد ما يهيج الحسرة أن تسير فى شوارع استانبول عند الباب العالى فترى الخطاط التركى الماهر وقد كسدت بضاعته ، وحاولت أن تجارى الزمان صناعته ، فكتب على مكتبه بالحروف اللاتينية Hattat أى خطاط

سيقول بعض الناس إن هذه العواطف لا ينبغى أن تعوق سير الأمم ، وأنا أقول لو كان هذا سيراً ما اعترضناه ، ولو كان إصلاحاً ماعارضناه ، ولكنه تقليد يعصف بتاريخ الآباء ، ويزلزل أقدام الأبناء ، ويقطع سنن الأمة كما تقطع جذور الشجرة

***

وقد وصل الكماليون عملهم فى الحروف العربية باجتهادهم فى نبذ الكلمات العربية والفارسية . زعموا أنهم يريدون إنقاء اللغة التركية من الكلمات الدخيلة ، فما بالهم يخرجون كلمة عربية ليضعوا مكانها كلمة أوربية ؟ كانوا يسمون معهد الأبحاث التركية « تركيات مؤسسه سى » فمحوها وكتبوا « تركيات أنستيتوسى » فلماذا آثروا كلمة institu على مؤسسة ، وهى كلمة هم واضعوها فى العربية وعنهم أخذها العرب ؛ وكم كان لهم من حذق وذوق سليم فى وضع مصطلحات علمية باللغة العربية التى اتخذوها هم وسائر المسلمين كاللاتينية عند الأوربيين . وكانوا يسمون الجامعة « دار الفنون » فسموها Université ، وكذلك وضعوا مكان معلم ومدرس وغيرهما من ألقاب الجامعة ألقاباً أخرى أخذوها من الألمانية ، ومثل هذا كثير . فليس بالقوم الاصلاح أو العصبية التركية ، ولكنه بغض العربية . وإذا تحكم البغض والحب فى تصريف الأمور لم يبق للحق والهدى مكان .

وكان لهم فى العام الماضى مؤتمر لغوى تكلم فيه أستاذ فى الجامعة فقال : إن بين العربية والفارسية والتركية علائق يجب الابقاء عليها ، فطرد من المؤتمر ومن الجامعة ، تقديساً للحرية التى يتغنى بها الكماليون ! وسمعت أن حسين جاهد ، وهو من الدعاة الأولين إلى العصبية التركية فى اللغة قال فى المؤتمر إن إنقاء اللغة يتم على مر الزمان ، ولا تصلح فيه الطفرة . فشتم وأسكت

وأوذى ، ولو كان الأمر بحثاً وإصلاحاً لاتسع للآراء المختلفة ، وأُخذ فيه بالنظر والروّية

وقد سمعنا أن الفرس يريدون أن يحذوا حذو الترك في هذا .

ونحن لا نكره أن يأخذ الشرقيون بعضهم عن بعض ، وأن يزول المداء القديم بين الفرس والترك ، وينسوا ما تصفه الشاهنامه من حروب إيران وتوران ، وما يحدث به التاريخ من جلاد الصفويين والعثمانيين . أجل ، أدعو الله أن يؤلف بين الأمتين ، ولكن لا أحب أن يقلد بعضهم بعضاً في هذه الترّهات ، وتتقيّل إحداهما الأخرى في هذه الضلالات

نحن لا ننكر على الترك والفرس أن يؤثروا الكلمات التركية والفارسية على الكلمات العربية حين يحسّون الحاجة إلى ذلك ، ويدعوهم إليه اصلاح اللغة وتجميلها ، وإنما ننكر عليهم أن يفعلوا ذلك بغضاً للغة العربية ، وإيثاراً لتقطيع الأوصال بين الأمم الاسلامية . إن في الفارسية والتركية اصطلاحات علمية وأدبية كثيرة ، بل تكاد تكون اصطلاحات الآداب والعلوم كلها عربية ، وهذه الاصطلاحات هي من أعظم الروابط بين الأمم الاسلامية .

وفي حذفها مفاسد كثيرة ، منها أنهم يحرمون أنفسهم اصطلاحات وضعت واستقرّت ، وتحددت ، وأحكمها الاستعمال في عصور متطاولة . وليس الاصطلاح على الكلمات ، وخلق اللغة العلمية بالأمر اليسير ؛ والثاني أنهم يباعدون بين اللغة العلمية القديمة واللغة العلمية الحديثة ، وفي ذلك ما فيه من الفصل بين قديم الأمة وحديثها ، والحيال بين المحدّثين وما كتب أسلافهم ، وبين مؤرخي الآداب وفقه أطوار الأدب الأولى

والثالث أنهم يقطعون الوشائج بين آدابهم والآداب الاسلامية الأخرى التي شاركهم أهلها في تأليف حضارة واحدة، على حين يسعى الناس للتقريب بين الآداب واللغات ولا سيما اللغات العلمية ، وهم أنفسهم من الساعين للتقرب إلى أهل أوربا أو الفناء فيهم . فلماذا الوصل من ناحية والقطع من ناحية أخرى ، والتقرب إلى قوم والتباعد من آخرين ؟ بل لماذا التقرب من الأعداء ، والتباعد عن الأصدقاء ، وحب الأمم الأوربية وبغض الشعوب الاسلامية ؟ هل لذلك من تأويل ؟ .

والرابع أنهم يعسّرون لغتهم على طلابها من الأمم العربية خاصة والأمم الاسلامية عامة ، والأمم تسعى اليوم لتيسير لغاتها وتسهيلها على طلابها

لست أقول هذا اشفاقاً على اللغة العربية ، أو عصبية لها ، فليس يحسّ المتكلم بالعربية والقارئ فيها أن ألفاظاً منها مستعملة في الفارسية والتركية أو غير مستعملة ، ولا يهتم بهذا إلا حين يدرس الفارسية والتركية ، ودراسة هاتين اللغتين من شؤونهما لا من شؤون العربية ، وإنما ينبغي ألا تقطع الصلات بين أمم عاشت دهوراً متآخية متعاونة كأنها أمة واحدة . وإنما يدعوني إلى الجدال أن الأخوة الاسلامية ، والجامعة الانسانية ، تنفر من هذه العصبيات القاطعة ، والنعرات المفرّقة

وفي اللغة العربية كثير من الكلمات الفارسية عُرّبت وأدمجت فيها ، وصيغت على أوزانها ، وما يفكر العرب في اخراجها من لغتهم ؛ ثم ألا يرى الفرس أنهم إن ذهبوا مذهب الترك في أمر اللغة ثار عليهم الأفغان والهند المسلمون وأهل كشمر وما وراء النهر ثورة أدبية فنبذوا اليهم لغتهم التي اتخذوها لساناً أدبياً ، ثم اجتهدوا في اخراج الكلمات الفارسية من لغاتهم ؟

أضرب لاخواننا مثلاً أوربياً ، فان الشرقيين لا يعرفون الحق إلا إذا شهدت به « ماركات » من أوربا :

هذه اللغة الانكليزية ، وهي ما هي انتشاراً بين الأمم ، وذيوعاً في الشرق والغرب ، فيها كثير من الألفاظ اللاتينية والجرمانية ، ومعظم اصطلاحاتها في الآداب والعلوم لاتينية . وقد وقع ما وقع بين الأمم اللاتينية والانكليز من حروب متمادية ، وما فكر الانكليز في أن يجمعوا الكلمات اللاتينية وينبذوها إلى اللاتين كراهة لهم ، أو عصبية للغتهم ؛ ما فعل القوم هذا ، لأن لهم من جلائل الأعمال ما يشغلهم عن هذه السفاسف

القوم يذهبون مع الحياة مذاهبها ، ويتوسلون لها بخير وسائلها ، فلا تتسع أوقاتهم للمناقشات في الحروف والألفاظ ، ونحن نغمض أعيننا عن أواصر تجمعنا ، وآلام وآمال تقرّب بيننا ، ونقلب تاريخنا لنعثر على عداوة قديمة ، أو حرب ذهب الزمان بذكراها وآثارها ، لنخلق منها قطيعة جديدة ، ونثير بها خصومة شديدة . كاد الانكليز والألمان يتفانون ويفنوا الأمم معهم منذ خمسة عشر عاماً ؛ وهم الآن يمدون أيديهم للتعاون والتعاهد ! فأين يذهب بكم أيها الشرقيون ، وإلى أين تساقون أيها المسلمون ؟ ذلك كلام واسع الجوانب ، بعيد الأغوار ، لايتسع له هذا المجال . ولعل لي اليه عودة ان شاء الله

(له بقية)

عبد الوهاب عزام

من مشاهد الشرق

٢ـ طائفة البهرا فى الهند

فى الطريق الى داعى الدعاة

بقلم محمد نزيه

وأذن الله أن أبرح عدن إلى الهند، فلم تبرح النفس تواقة إلى رؤية الشيخ الأكبر لطائفة البهرا، ولم تزل تستنفر عزيمتى حتى عاهدت كل منهما صاحبتها على أن تكون زيارة الشيخ أول ما أتكلف له بعد مطالعة (بمبى)، فلم أكد أنيخ الراحلة فى هذه المدينة، حتى طالعنى أبناء هذه الطائفة زرافات ووحداناً! تموج بهم المدينة؛ فهم فى شوارعها ودروبها وحوانيتها يعرفون بطول اللحى، وبالعمائم البيضاء، و(البنطلونات) تحت المعاطف القصيرة، وبالنشاط الذى لا يفتر، وبالوقار الذى لا يُذهل عنه؛ فانهم قوم جبلوا على النشاط حتى لتحسبهم فى سرعتهم إذا ساروا وفى دأبهم إذا عملوا، أضعاف أضعافهم، هم لا يتجاوزون العشرين ألفاً فى مدينة تزخر بمليون وثلثمائة ألف نسمة؛ ولكن دأبهم جعل الواحد منهم عشرة أشخاص! لا تكاد تراه هنا حتى تشهده هناك، كأنه من عالم الأرواح ... هم كالموج المتلاطم على سطح المحيط، يضيق به الخضم وهو منه كالحصاة من الجبل، بل وتمضى السفن فى طريقها تشق العباب ولا تحفل به، حتى إذا دوى الموج ارتعدت فرقا، واهتزت رعباً، وكانت تهتز عجباً

ليس من جماعة البهرا من لا يجمع إلى فصاحة الأردية طلاقة الكجراتية، ورطانة الانجليزية؛ وليس فيهم من يعرب لباسه عن حاجة، أو ينم ضعفه على هوان، فكلهم عند نفسه كريم، وفى قومه عزيز

كنت راغباً فى زيارة الشيخ الأكبر، فلم يزدنى ما تحققته من طوابع طائفته إلا رغبة أمست رؤى، وأصبحت هواجس ـ والشيخ لا يحظى بالاستئذان عليه إلا كل عظيم بارز فى قومه، ولا مناص ـ لمن شاء ـ من رجاء يتقدم به إلى رئيس الوزارة البهرية، فاذا انتهى هذا به إلى الشيخ فأذن، حدد الموعد بحساب الدقائق فيما لا يستنفد من الساعة إلا أقلها، وعلى أن يذكر الزائر أن الدقيقة ستون ثانية، والثانية ستون ثالثة، فكأن دقات القلب لا تسعف فى هذا الحساب

وكان أن تفضل الشيخ الأكبر، فأذن لرئيس وزرائه أن يستقدمنى، ضاربا للقاء موعداً من مساء يوم قريب . . . فلما أن اقترب الموعد، ركبت إلى قصر الشيخ، وكعبة الحجيج من أبناء الطائفة، فى (والْ كِيشَرْ)

ووال كيشر، هو من ثغر بمبى حى الطبقة الرفيعة من سراة الاقليم، أقيم على ربوة عالية تطل على المحيط وتشرف على المدينة كلها ـ لكأنه نجم سهاعن ذكره الفلكىّ ـ ليس بين قصوره وعمائره إلا متاحف تنطق بغنى الهند وتفصح عن جاهها وترفع النقاب عن فنونها ـ من شاء أن يعلم أين تنصب كنوزها فى هذا الحى السعيد مصبها، وفيه يستحيل الذهب فنوناً، وتقوم الرياض على قنة الجبل كأنها البنود المرفوعة . أليس زرعها يتماوج من مداعبة النسيم كما تتماوج البنود، أليست مطرزة بألوان من الزهر مختلفات بين أحمر القرنفل وأبيض النرجس وأصفر الورد وأزرق البنفسج، على صفحة من خضرة مذهبة؛ ثم لعل ما ينفح الناس من طيبها فينبههم إلى تحيتها إذا أغفلوا، إنما يقوم فى موضع تلك القداسة المعنوية التى تنبه الناس إلى تحية العلم

بلغت السيارة بنا حى وال كيشر، فتباطأت عند أقدامه وتهيأت للتصعيد فى مراقيه، وأخذت تطوى مسالكه ونحن فى داخلها كأننا تحت أجنحة طائرة، وقد مهد الطريق على شدة صعوده وكثرة منعرجاته، وامتد الزرع على جانبيه، وقد امتزج سكون الليل إذ ذاك وسكون العظمة يزدهى بها هذا الجبل الذى لا يحمل على أكتافه، ولا يضم إلى صدره، إلا العظماء وفنونهم؛ فاذا رهبة زاد بلوغها فى النفس هذه الأضواء الخافتة التى تشع من مصابيح الطريق، ولا راجل فى مراقى هذا الجبل بل سيارات تصعد بأهلها أو تهوى بهم فينة بعد فينة. وفيم يقدم الراجل على ركوب هذا الجبل؟ وهو لا ناقة له فيه ولا جمل؟ أما خفوت الأضواء، فلعل له غاية لا تمت بسبب إلى مبادئ الاقتصاد، هذه المبادئ التى يلفظها هذا الجبل، بل لعله يرتفع

بسا كنيه معتصما بالعلو من سيلها ، وعاصما لهم منه ، إنما هي دعوة الجمال ، ومن آياتها ألا يطغى النور الصناعى على النور الطبيعى ، على نور القمر وما أحاط به من كواكب

كنا نجتلى مفاتن هذا المنظر السحرى ، والسيارة توغل فيه كأنما نسيت أنها تقصد بيتاً ، فاندفعت على غير هدى تريد أن تصل إلى أعماق هـــذا الابداع ؛ أما أنا فقد مرت بى برهة ما شككت أثناءها فى أننى أترك العـالم ، وفى أننى لن ألبث طويلاً حتى أبلغ ماوراء الكون ، وأهتدى إلى أسرار الخلق وغوامض الحياة والموت .. ثم ليكن ما يكون ، ومازالت أرواحنا تسمو ويخلص جوهرها من شوائب الدنيا وأعراضها وشهواتها حتى صارت كأنما فرغ الله من صنعها منذ طرفة عين ، ذلك كله والسيارة تهتز فى منعطفات الجبل كأنها سكرى . . . . بل هى سكرى ! ولم لا ؟ وهى تسبح فى خمر الطبيعة ، ثم لم لا ؟ ومن شأن هذا الجمال أن يشيع الحياة فى الجماد

انتهينا إلى بوابة رحيبة الجانبين مفتوحة المصراعين ، وكانت حمايتها إلى حارسين عليهما أزياء الجند ، ما إن نفذت سيارتنا منها ، ثم هوت خطوات فى جادة القصر ، حتى كنا فى قلعة ذات أبراج ، تكاد تقطع بيننا وبين معالم الدنيا ، وكأنما أعدت لتقارع الفناء ، وليمتنع بها الأبد

ثم استقرت السيارة بنا فى منتصف هذه الجادة عند ردهة على يمينها ذات ثلاثة أبواب ، وهنالك ابتدرنا خادمان ملتحيان هما من أبناء الطائفة بالسؤال ، فأجبنا ، وإن هى إلا برهة حتى استقبلتنا غرفة الانتظار عن يمين الردهة ، فلما شرعت إليها ساق ، همس سائق السيارة فى أذنى بانجليزيته المفهومة على أى حال ، أن اخلع نعليك فذلك عند القوم سنة مؤكدة ، وقد فعلت ، ودخلت فاذا غرفة تتسع لنحو سبعة أمتار فى نصفها ، صفت إلى جدرانها كراسى نظيفة ليست بالوثيرة ولا بالخشنة ، وكل أبهتها فى سجادتها البيضاء ، المتسمة بأبهى الألوان فى أبدع الشكول ، وفى تلك الصور القليلة تحف بها إطاراتها الثمينة ، وقد ثبتت إلى الجدران ، وبينها صورة الحرم القدسى رصعت بالأصداف ، وقد علمت أنها كانت فيما حمله وفد المؤتمر الاسلامى إلى الهند من هدايا ؛ فكانت نصيب هذه الغرفة

ظللت أتأمل محتويات الغرفة دقائق لعلها بلغت عشراً ، حتى أقبل علىّ رجل معتدل القامة كريم الوجه ، هو فى ضحى العقد السادس من العمر ، ينبئ الجد فى ملامحه والنفوذ فى عينيه خلف منظاره الأبيض ، والانتصاب فى قامته ، والهدوء فى نبرات صوته ، عن أن له فى هذه الدولة شأناً ؛ طويل اللحية أسودها ، يرتدى معطفاً قصيراً من أقمشة الصيف خفيف الاسمرار مشدوداً إلى عنقه ، تحته بنطلون من القماش نفسه ، وقد تعمم على طربوش ، لحيا ، ثم استوثق من أننى صاحب الموعد المضروب ، فاقتادنى إلى مجلس داعى الدعاة

ذاك رئيس الوزارة البهرية ، وكاتم سر إمامها ، وأقرب القوم إلى نفسه ، وهو من وجوه المدينة وأعلام رجال المال فيها ، وهو ممن يلقى الحاكم إليهم سمعه ، ولا يضن بالطاعة له المحكوم . . . ثم هو قبل ذلك ومع ذلك وبعد ذلك ، خادم للشيخ لا يعدل بمرتبته تلك مرتبة إلا أن تكون فى السماء

القاهرة — محمد نزيه

حافظ بك ابرهيم

اثر حياته فى اخلاقه وشعره

بمناسبة ذكراه

بقلم السيد احمد العجان

تمهيد :

لست أحاول التحدث عن نواحى الدراسات المختلفة فى أدب حافظ ، فان مباحث شعره المتعددة لا تأتى عليها لمحة سريعة ووقت قصير ؛ ذلك لأن العاطفة فى رثائه موضوع دراسة ، وتداعى المعانى فى خمرياته موضوع دراسة ، وظرفه وفكاهته ومدحه ووصفه كلها محل بحث وتناول وتحليل . ولقد تكلمنا (١) عن حافظ (الشاعر الوفى لمصر) فى ذكراه الثانية ، وسنتكلم اليوم عن ناحية جديدة لها متين الصلة بالمجتمع ، وكبير الأثر فى حياتنا العامة ، وهى أثر حياته فى أخلاقه وشعره

— ١ —

نشأ حافظ ابراهيم — رحمه الله — نشأة شعبية ، قد زخرت بألوان العيش ، وتقلبت بين مُتع دنيا لم تشبعه ، وبؤس زمان غلب عليه ، وعاش مسكيناً وبائساً فى مجموع حياته ، لا نستطيع أن نحدد صفوه ونعيمه بشهر معلوم ، ولا بسنة ، ولا بفترة من الزمان طويلة ؛ فانه قد يكون فى اليوم الواحد شقياً وسعيداً ، بائساً وغنياً ، إلا أنه فى المجموع متغلب البؤس ، متدانى الرزء ، غير مجدود

وما النعيم لديه إلا فترات يخلقها ما فيه من ظرف ومرح ، وتبعثها مداعباته وفكاهته ، ويولدها تفاؤله بالمستقبل ، ويقينه فى الظفر ، ثم ما يراه فى العلم والفضيلة من تقريب للسعادة ، وسمو بالروح

وهذا القدر من الظرف والمرح هو الذى هيأ لحافظ عطفاً على فقره ، وولد فيه حناناً من بؤسه ، وحببه إلى الصحاب والعارفين ، ودفعه إلى مواساة البائسين ، ومشاركة المحزونين ، فلئن صح أن فى البؤس ذلة وانكساراً ؛ فان فى الحنان ميلاً إلى البر ، واندفاعاً إلى الصدقة

— ٢ —

كان لهذه النشأة أكبر الأثر فى صدق شعوره وإحساسه بالآلام ، وتعبيره عنها أدق تعبير ، ورسمه صوراً شفافة واضحة لألوان البؤس التى يكتوى بنارها الشعب ، ويقاسى بسببها العذاب

وجدير بنا أن نتساءل : أكان مدفوعاً إليه بنفسه ، مطبوعاً فى حنانه ؟ أم هو البيان يثيره والشعر يحفزه ؟ أجاب حافظ — رحمه الله — بما يقطع كل شك ، ويقضى على كل تأويل :

ذقت طعم الأسى وكابدت عيشاً ... دون شربى قذاه شرب الحمام
فتقلبت فى الشقاء زماناً ... وتنقلت فى الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقباً فى فؤادى ... ومشى الحزن ناخراً فى عظامى
فلهذا — وقفت أستعطف النا ... س على البائسين فى كل عام

ولقد عرف إحساسه خلق كثير : عرفه صديقه الجليل الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى ، فقال فى المرآة ، : « على أنه ما فتئ طوال أيامه يشكو البؤس . . . ولعل هذا من أنه نضجت شاعريته فى باب (شكوى الزمان) ، وقال فيه مالم يتعلق بغباره شاعر ، فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً ، ويتفقده تفقداً . » ولا ينبئك مثل صديق

وعرفه كل من خالطه وعاشره ، بل عرفه كل من قرأ شعره ، وتصفح ديوانه الذى هو صورة من نفسه

«قد دروا أن الشعر فى كل أرض ... هو من نفس أهلها منزوع »

— ٣ —

إذن كان حافظ يتطلب البؤس والبائسين تطلباً ، ويتفقدهم تفقداً ، وكانت لديه رغبة قوية صادقة فى مشاركة البائسين آلامهم ، ومشاطرته أحزانهم ، « والرغبة (١) الحق هى تلك القوة الروحية التى توحى إلى الشخص القيام بالشىء بهمة لا تعرف الكلل ، ولا تقف دونها عقبة : رغب « ابراهام لنكولن » فى تحرير العبيد يوم ذهب مع بعض العمال إلى السوق ، فوجد جارية تباع وتشترى ، فتألم لبيع الانسانية وشرائها الألم كله ، وتمنى أن لو أعطى سلطة حتى يضرب على الاسترقاق بيد من حديد ، فأعطى الفرصة بعد زهاء ثلاثين عاماً ، بانتخابه رئيساً للجمهورية فى ولايات أميركا المتحدة ، فكان من أوائل أعماله ، العمل على تحرير العبيد

(١) العدد ٥٦ من (الرسالة)

(١) الأستاذ محمد عطية الابراشى

وإن شدة الرغبة فى الاصلاح الاجتماعى هى التى جعلت « شارلز ديكنز » أكبر كاتب ومصلح اجتماعى بانجلترة فى القرن التاسع عشر

وإن الرغبة فى أعمال الآلات هى التى جعلت « أديسون » أكبر مخترع فى القرن العشرين . والأمثلة كثيرة لا حصر لها »

وهذه الرغبة كانت قوية لدى حافظ ، تهزه ويجيش بها صدره ، صادقة غاية الصدق ، أراد بها إنقاذ الشعب من ذله ، وتحريره من إساره وعبوديته ؛ فلست أحسب رجلاً وهبه الله إشفاقاً على البائسين ، وحناناً على صرعى الفقر ، وضحايا الأملاق ، ومنكوبى الزلازل والغرق والحريق كشاعرنا العظيم ؛ فهو يرسم ببيانه الذى يطاوعه صوراً ناطقة تكاد تتجسم أمامك ، وتمثل بين يديك ، تسمعك أنينها وتوجعها ، وتبثك آلامها وتفجعها ، وتحرك فيك ما كمن من عطف واستتر من حنان . فما سنحت فرصة إلا غرد بالألم ، ولا حانت مناسبة إلا دعا إلى الرحمة

— ٤ —

ولهذا نراه شديد الولوع بقصص المرزوئين ، وروايات المعدمين . شغف « بالبؤساء » فترجمها ، وهام بها فنقلها إلى لغة قومه ، لأن فيها إرواء لعاطفته ، وغذاء لنزعته ، وتعبيراً صادقاً عن خلجات فؤاده ، ولانها منتجع خاطره ، ومهوى قلبه . واختار لها من الألفاظ والأساليب ما يذيب قسوة الصلد رقة وليناً ، ويخترق أذن الأصم فيضحى سميعاً . ولأنها تمثل لوناً من الانسانية المعذبة ، وطائفة من أسرى العوز ، وضحية من ضحايا تتكرر على الدوام ولا تنقطع ، تتكاءدها الهموم ، وتمثل بها خطوب الزمن ، وتنهشها أفاعى الضنك على مرأى من السراة وأولى الأمر ؛ فلا يخلصها منقذ ، ولا يدافع عنها نصير

— ٥ —

ثم لهذا نرى الغزل فى شعره قد توارى واختبأ ، ولا نستطيع أن ننسب حافظاً إليه ، لأنه أحسّ بما يشغله عن تتبع المرأة ، ويصرفه عن طلابها

وقد يكون ذلك لضيق اليد ، وخلو الجيب ، إذ من شأن الانصال أن يتطلب المال ، والوقت ، والثراء . ولكنى أرجح الأول ؛ لسمو غايته ، ونبل مقصده ، وموافقته لحياة شاعرنا

ثم لهذا أيضاً بكى كل مصاب ومفجوع ، وناح على كل ضائع وشريد ، واستبكى المحسنين معه ليستدر عطفهم ويستميل قلوبهم

— ٦ —

وإذ أحسّ أن كثيراً من أهل العسرة وضيق اليد يرمقون المال ويشتهونه ، حتى إذا لم ينالوه يئسوا من الدنيا ، وسخطوا على الحياة ، أخذ رحمه الله يعالج أدواءهم ، ويهدم مذهبهم

فهو مع فقره لم يتبرم بالحياة إلى حد القنوط ، ولم يسخط عليها حتى اليأس . فليس التجرد من المال فقراً ، وتكدس الخزائن به غنى ، ولكنه وسيلة ترفيه وأداة رغد ، فان لم يفد متاعاً ولم يكسب مغنما ، فلا خير فيه ولا منفعة منه . وأنه كثيراً ما اجتمع له المال الوفر من كتب ألفها وترجمها ومقالات كتبها وسطرها ، ووظيفة قبضها ، فما استقر عنده ، ولا عمل على ابقائه . قال الأستاذ البشرى فى المرآة : « وهو أجود من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قسطاً من الأموال ، لكان اليوم من أهل الثراء ، على أنه ما فتىء طوال أيامه يشكو البؤس ، حتى إذا طالت يده الألف جن جنونه ، أو ينفقها فى يوم إن استطاع »

— ٧ —

ثم أمسك بأيديهم ، ونهض بهم إلى حيث المجد يبتغى ، والشرف ينال ، وعزة النفس تكتسب : بالعلم ، بالأباء ، بالكرامة والرزق ووفرة المال ، بالسعى ، بالهجرة ، فأرض الله رحبة واسعة :

وفيها لمن رام الحياة سعادة وفيها لمن رام النعيم مقـــام

والتفت إلى الحاكمين والسراة يستثير عطفهم ، ويحرك الشفقة والحنان نحو مساكين تنتابهم غير الدهر ، وتتوالى عليهم أحداث الزمان ، وبائسين يؤلمهم الفقر ، ويؤذيهم العرى

— ٨ —

وعاطفة المواساة ترتق بحافظ : فلا تقتصر على مواساة الفقراء والمنكوبين ، وأسرى الحروب والملقين ، ولكنها تنوح بالألم ، على كل حالة يعتبرها صاحبها شقاء ويظنها تعساً . على كل حالة تصرع الرجل فيها الشدائد ، وتضمضعه النوائب ، وتهده العظائم والشوائب . على كل حالة يتبدل فيها شأن الانسان من رضى وسكون ودعة ، إلى تبرم وسخط وكراهة ، من شعور بالراحة والسعادة والهناء ، إلى تذمر وامتعاض وموجدة ، فتراه

يواسى ملوكا غاب عن جبينهم التاج ، وسلاطين خلت أيديهم من الملك ، وأصبحوا يحتمون بالقانون بعد أن كانوا مصدر القانون ! ويخضعون للنظام وقد كانوا يصدرون النظام ! ويبتدئون بالتحايا العارفين وقد كانوا بها يبتدأون ، ولهم مراسيم تقضى وواجبات تؤدى . . . ! !

هذه الامبراطورة « أوجيني » زوجة نابليون الثالث تقدم مصر بعد زوال ملكها ، فيرفع لها حافظ تحيته ، بل مشاطرته ومواساته :

إن يكن غاب عن جبينك تاج ... كان بالغرب أشرف التيجان
فلقد زانك المشيب بتاج ... لا يدانيه فى الجلال مدانى
ذاك من صنعة الأنام وهذا ... من صنيع المهيمن الديان
فاعذرينا على القصور كلانا ... غيرته طوارئ الحدثان

وقال فى فتنة الآستانة موجهاً إلى السلطان عبد الحميد صورة من التأسى والتصبر ، مشفقاً عليه باكياً ، بعد أن كان مغيظاً حانقاً ، يعيب على الشامتين شماتهم ، وينتقص رجولتهم ، ويبين أنه لازال خارج الحكم عبد الحميد كما كان مملكا حاكما :

كنت أبكى بالأمس منك فمالى ... بت أبكى عليك عبد الحميد
فرح المسلمون قبل النصارى ... فيك قبل الدروز قبل اليهود
شمتوا كلهم وليس من الهمة ... أن يشمت الورى فى طريد
ما عهدنا الملوك تبكى ولكن ... علها نزوة الفؤاد الجليد
شفع الدمع فيك عند البرايا ... ليس ذاك الشفيع بالمردود
دمعك اليوم مثل أمرك بالأمس ... مطاع فى سيد ومسود

ولعل هذه الفواجع المتكررة ، والأرزاء المتتابعة ، التى يستوى فيها الفقير لا يجد قوتاً ، والشريد لا يعثر على مأوى ، والملك لا يأمن غدر الدهر وخيانة الزمن ، والسلطان لا يستقر به الجاه ، ولا تدوم له العزة — لعل هذه الفواجع — هى التى جعلت حافظاً ينحى باللائمة على حواء أمنا الأولى ؛ لأنها ولدتنا ولم توص الزمان بنا خيراً ، مع عرفانها بصروفه وأكداره :

لم تلدنا حواء إلا لنشقى ... ليتها عاطل من الأولاد
سلمتنا إلى صروف زمان ... ثم لم توصه بحفظ وداد

ولكنه فى غضبه هذا لم يذهب كما ذهب غيره : يدعو الموت ويتطلب مبارحة الحياة وفراق الدنيا ، ولم يكن كمن قال : « فيا موت زر إن الحياة ذميمة » ؛ ولا من قال : « ألا موت يباع فأشتريه » ؛ بل فطن لما فرط منه ، وانتبه لما بدر ، فنفض عن نفسه غبار الشجو ، وكابوس الجزع ، فهو يسوءه أن يضيق ذرعاً بدنياه ، ويؤكد أن الاستسلام للألم مما يشينه ، وقد يعوقه عن تأدية رسالته . فالمواساة ليست بكاء فقط ، أو ألماً فحسب ، ولكنها : تسرية هموم وتخفيف مصاب ، ثم هى فوق ذلك جلب منفعة ، وإكساب غنيمة ، وليس فى مقدوره أن يخدم الفقراء والبائسين إذا ضاق بالحياة وسخط على الدنيا ، وانزوى بعيداً ، لا يتصل بالحاكمين ، ولا يتعرف ما عند المحسنين

— ٩ —

ولقد عرف أن تخليد الذكر إنما يكون بالاحسان ، فهو أبقى على الزمن ، وأدوم فى التاريخ ؛ فأخذ يغرى الحاكمين بالعطف على أبناء الشعب والعمل على إسعاده ، ولا سيما أن منصب الوزارة ليس دائماً ، ولكنها الصالحات والمؤسسات الخيرية أبقى وأكثر دواماً :

إن المناصب فى عزل وتولية ... غير المواهب فى ذكر وتخليد

وأغرى السراة بالانفاق على الفقراء ، فلقد يكون منهم الزعيم السياسى يخلص الوطن وينقذ البلاد ، أو الرئيس الدينى يرعى الأخلاق ويحمى الشريعة ، أو الشاعر النابغة يهز القلوب طرباً ، ويثقف المقول بياناً وحكمة :

أيها المثرى ألا تكفل من ... بات محروماً يتيماً معسراً
أنت من يدريك لو أنبته ... ربما أطلعت بدراً نيرا
ربما أطلعت (سعداً) آخرا ... يحكم القول ويرقى المنبرا
ربما أطلعت منه شاعرا ... مثل (شوقى) نابهاً بين الورى
ربما أطلعت منه (عبده) ... من حمى الدين وزان الأزهرا

***

كم قضى البؤس على موهبة ... فتوارت تحت أطباق الثرى
كل من أحيا يتيما ضائعا ... حسبه من ربه أن يؤجرا

ثم نراه يبين لأولئكم السراة أن لا قيمة للمال إذا لم يعصمنا من الفقر ، ولم نؤسس به الملاجئ ، ودور العلم ، وبيوت الشفاء ؛ فان الدينار نفرح به مادام فى أيدينا ، حتى إذا مادخلنا به السوق كان والدرهم سواء . والمال الكثير إذا حل الغلاء ؛ يكون قليلاً يمضى سريعاً

نهش إلى الدينار حتى إذا مشى ... به ربه للسوق ألفاه درهما

فلا تحسبوا فى وفرة العلم لم تفد متاعاً ولم تعصم من الفقر مغنما
فان كثير المال والخفض وارف قليل إذا حل الغلاء وخيما

— ١٠ —

ولقد بصر بلذع السؤال ومرارته ، وألم الاستجداء وحرقته فأهاب بالمحسنين أن يصدروا عن عاطفة ، وألا يحرجوا المحروم ؛ فان خير الصنائع ما تنبو بحاملها عن الاهانة ، وإن الذى يجود بعد الحاح وطلب كثير ؛ لهو المعدود من البخلاء :

خير الصنائع فى الأنام صنيعة تنبو بحاملها عن الأذلال
وإذا السؤال أتى ولم يهرق له ماء الوجوه فذاك خير نوال
من جاد من بعد السؤال فانه وهو الجواد يعد فى البخال

وهو لذلك يربأ بنفسه أن تمد يده لذى منّة ، وأن تبسط لمن يستعذب سؤال المحتاج ، أو من يعتز بغناه ليسخر من مسهب معوز ؛ فيعف ويودّ لها البلى قبل سؤال الدنىء اللئيم

أيا يد ما كلفتك البسط مرة لذى مِنّة أولى الجميل وأنعما
فلله ما أحلاك فى أعل البلى وان كنت أحلى فى الطروس وأكرما

— ١١ —

لحافظ — رحمه الله — مذهب فى الاحسان ، فهو يرى أنه ليس منة وفضلاً يفخر به ذووه ، وتعلو به رؤوسهم وتشرف أقدارهم ، وإنما هو واجب على المثرى أن يؤديه ، وحق للفقير يجب أن يوفيه ، ودين لا يفر من قضائه الا مماطل ، ولا يهرب منه الا نذل دنىء . والاحسان فى نظره يستطيع كل انسان أن يؤديه :

بالقول !! يخفف به الألم عن الشاكى ، ويثير به همم أولى العزم والمروءة والنجدة

وبالدمع !! مشاركة للمحزون فيما أحزنه ، وللمهموم فيما أهمه وللمصاب فيما أصابه

وبالمال !! الذى هو العون فى قضاء الصوالح ، والجالب للنفع ، والدافع للضر ، به نقضى الرغبات ويؤدى المطلوب قال فى زلزال إيطاليا :

سلام على الأولى أكل الذئـ ـب وناشت جوارح العقبان
وسلام على امرئ جاد بالدمـ ـع ، وثنى بالأصفر الرنان
ذاك حق الانسان عند بنى الانـ ـسان . لم أدعكم إلى احسان

(البقية فى العدد القادم)

السيد محمد العجان

الى الأستاذ أمين الخولى :

حول الفقه الاسلامى
والفقه الرومانى

للأستاذ صالح بن على الحامد العلوى

قرأت ما كتبتم رداً على مقالى عن الفقه الاسلامى والرومانى وأشكركم على حسن ما ظننتم بى من الغيرة الدينية وجميل الأدب فى النقاش .. وبما أنك أيها الأستاذ قد تنكبت فى ردك جوهر الموضوع فى مقالى إلى ناحية أسلوب التفكير وصحة الانتقال والاستنتاج -- كما عبرت -- مكتفياً ببيان أنك قد اطلعت على الموضوع نفسه وأنه قد نشر فى مصر -- وربما بنصه -- منذ ربع قرن مضى الخ ، وقلت إنك قرأته ولا تزال تذكره جيداً ومع ذلك قلت فيما قلت عن تأثر الأوزاعى بالفقه الرومانى الخ

فانى أقول لك ـ على تسليم ما ذكرت ـ : انى لم أكتب ما كتبت متّهماً لك فى معارفك ومعلوماتك ، ولا لأن أقنعك أنت وحدك فقط دون الجم الغفير من قراء (الرسالة) القراء الذين قد قرأوا ولا شك رأيك ورأى غيرك فى الموضوع وإلا لما كان الأمر فى حاجة إلى نشره فى صحيفة سيارة كا(لرسالة) ، فالأمر قد صار أعم من أن يختص بى أو بك . أفليس من اللازم أن تجيب ـ ولو بايجاز عن كل ما كتبتُ وتبسط للقراء رأيك مدعّماً ببراهين لا تنقص ـ على الأقل ـ عن براهين مناظرك ، وبذلك تكون قد أرت السبيل للقراء لأن يهتدوا برأيك ويتفقوا معك على تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى . وإلاّ فلا معنى لأن تفتح باب البحث مختاراً ، ثم إذا دعيت إلى بسطه عمدت إلى سدّه متعللاً بضيق الوقت

لا يا أستاذ ! إن الوقت الذى تعتذر بضيقه الآن قد اتسع لدرس علوم وفنون وصنائع قد ضاق عن أقلها الزمن الماضى ، فلماذا يضيق ذرعاً بالخوض فى هذا البحث وحده ؟

وإذا كان قراء الصحف الأسبوعية لا ينشطون للمناقشة الفنية

كما قلت فانى أجل قراء (الرسالة) بخاصة عن ذلك . فالرسالة فى اعتقادى هى الصحيفة الأسبوعية الجدية الوحيدة التى ينبغى أن تضطلع برسالة العلم - كما يعبر اليوم - والأدب والفن ، وأرى أن قراءها كذلك يمتازون من قراء غيرها من الصحف . على أن الصحيفة الراقية هى التى ترفع قراءها إليها لا التى تنزل إليهم . والآن آخذ فى ذكر ملاحظاتك على مقالى والرد عليها

وأبدأ أولاً بأخذك علىّ قولى : ان الأخذ والتأثر يجريان إلى مدى واحد بقولك : (إن التأثر قد يكون سلبياً صرفا ، ثم استشهادك لذلك بأن الوثنية العربية قد أثرت فى الاسلام فى تحريم التصوير والنحت الخ ، والحق أيها الأديب أن تحريم التصوير ليس من موضوعنا فى شىء ، وليس إلا من باب سد الذرائع وهى القاعدة المعمول بها فى الاسلام ولا تزال أصلاً فى مذهب مالك ؛ ومن أمثلة ذلك فى الاسلام تحريم آلات اللهو سداً للذريعة فى تعاطى الخمر ، وضرب الحجاب على المرأة سداً للذريعة فى افتتان الرجل بها ، كالعكس إلى غير ذلك ، فلماذا أيها الأستاذ لا تجعل تلك من هذه ؟ ولا تكون فى حاجة لتكلف هذا التأثر السلبى غير المفهوم ، اللهم إلا إذا كان كتأثر الشىء بضده فى ظهوره ووضوحه عند المقابلة كالبياض مع السواد مثلاً فيكون هذا من باب : وبضدها تتبين الأشياء

ثم انى أخشى أن يعد ما قلته أيها الأستاذ خطوة فى التهرب من الموضوع والتملص منه ، ذلك لأن أصل البحث الذى نحن فيه أنه وجد فى الفقه الرومانى تشابه مع الفقه الاسلامى فهم منه البعض وجود علاقة بين الفقهين ، فادعى كولد زهير ومن قلده تأثر الفقه الاسلامى بالرومانى ، فقلنا كما قال غيرنا أيضاً : ان الأحرى والأنهض بالدليل أن يكون الرومانى هو المتأثر . هذا هو حاصل الموضوع ، فلو سلمنا صحة تقسيم التأثر إلى إيجابى وسلبى كما قلت أيها الأستاذ فما السلبى مما نحن فيه فى قليل ولا كثير . وإذا كنت ترى تأثر الفقهاء بالفقه الرومانى إنما هو تأثر سلبى بهذا المعنى فقد لا يبقى بيننا ما يستوجب النزاع والمناقشة

(٢) وقلت أيها الأستاذ عند قولى : إن الاسلام فى ذاته جاء خارقاً لقاعدة البيئة والثقافة ، إذ قام به النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو النبى الأمى الذى نشأ أبعد الناس عن أن يطلع على قانون رومانى أو حكمة منقولة ، وأتى بهذا الدين الأقدس مناقضاً كل المناقضة لما عليه قومه . . . الخ . قلت : (إن هذا القول غريب من . . . لأنه لا يصح إلا على تقدير أن هذا الدين من صنيع الرسول نفسه وهو أمى . . . الخ فعمله ناقض لقاعدة البيئة والثقافة ، أما على أن الاسلام كما هو فى حقيقته وحى إلهى فلا يستقيم هذا التمثيل مطلقاً فى نقض قاعدة البيئة والثقافة الخ)

فلولا حسن ظنى بسلامة نيتك أيها الأستاذ لعددت هذا منك مغالطة غير سائغة من مثلك ؛ ذلك لأنى لم أقل فيما كتبت إن الاسلام بظهوره بهذه الصفة ناقض لقاعدة البيئة والثقافة قط ، ولكنى قلت : إن الاسلام فى ذاته خارق لها ، لأنه دين سماوى ووحى إلهى لا تتحكم فيه بيئة ولا تؤثر عليه ثقافة ؛ على أن قولى خارق أحرى بأن يفهم منه اثبات قاعدة البيئة والثقافة ؛ لأن الخارق ما خرق العادة وخالف مقتضاها ، والغرض مما قلت بيان أن الاسلام فى فقهه وعقائده وعباداته لا يتطرق اليه تأثير البيئة والثقافة ، لأنه فى كل ذلك جاء خارقاً لقانونها ، ولم أقل قط إن الاسلام ناقض لقاعدة البيئة والثقافة كما فهمت أيها الأستاذ ، بل قلت : إنه خارق ؛ وفرق بين مدلولى اللفظين ، فليشهد القراء وليحكموا !

(٣) وقلت أيها الأستاذ عند قولى : إن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة ، أو بعبارة أصح جاءت فى زمن واحد . . الخ (إن هذه العبارة أوضح من أن تحتاج مخالفتها إلى دليل) . فلماذا أيها الأديب الفاضل ؟ فهل كنت تنكر أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يمت إلا وقد تركنا على المحجة البيضاء ، حتى ترى أن بعض الشريعة لم يوجد إلا بعد زمنه ؟ ألم يقل الله جل ذكره فى كتابه العزيز : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) ؟ ويقول ابن عباس والسدى فى تفسيرها : إن المعنى اليوم أكملت لكم حدودى وفرائضى وحلالى وحرامى بتنزيل ما أنزلت وتبيين ما بينت لكم ، فلا زيادة فى ذلك ولا نقصان منه بالنسخ بعد هذا اليوم ؟ حتى غالى بعض نفاة القياس فاحتج بها على إنكاره

(٤) ثم ذكرت أيها الأستاذ قولى : وهيأ لنا شريعة كاملة ، وقانوناً ربانياً منظما يصلح لأن يطبق على أى جيل وعلى أية أمة ، ولم يزد فيه الفقهاء شيئاً قط إلا تصنيفه ونقله . . . الخ ، فقلت : (إن هذا الكلام ليس أحسن حالاً من سابقه ، فالفقهاء قد فهموا وطبقوا واستنتجوا واستنبطوا . . . الخ) ونحن لا ننكر

هذا ، وعبارتي لا تفيد نفيه إذ لست ظاهرياً ، وقد شاء قلمك أيها الأديب أن يقتضب من عبارتي ماشاء فقط ، وإلا ففي آخر الفقرة بيان المراد ، فقد قلت في آخرها إنهم (أعني الفقهاء) فيما لم يجدوا فيه نصاً صريحاً يطبقونه على قواعده الأساسية ، وهذا هو معنى الفهم والاستنباط ، ولا يقال له زيادة ولا تعارض في العبارة ، لأن المراد بما لم يزد فيه الفقهاء شيئاً أصوله وقواعده الأساسية ، وهي التي لم يلحق المشرع الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى إلا وقد تركنا منها على سبيل واضح وقانون رباني منظم وشريعة كاملة ، فيحسن أن نقول هنا إننا والأستاذ الفاضل على خطة اتفاق

(٥) وقلت أيها الأستاذ إن قولي (. . . والنصوص الفقهية كلها صريحة بينة الاغراض واضحة المرامي ، يناقضه قولي في القرآن : على أن الاختلاف في تفسيره ليس إلا لايجازه المعجز مع بعد مراميه الغيبية ، وقلت : (إن هذا الايجاز المعجز لم يفت آيات الاحكام كذلك وبعد المرامي يشملها . وجوابي عليك أن آيات الاحكام قد جاءت مفسرة بالسنة إلا ما ندر منها كآية الربا ، فلم يبق مجال للاختلاف فيما أوضحه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما يمكن أن يكون في غيره مما لم يفسر بالسنة ، وبهذا يتضح الفرق بين أدلة الاحكام والتفسير المختلف فيــه ، ويصح به لنا القول بألا يقاس بالفقه التفسير ، وحسبك دليلاً على الفرق بين فهم الكتاب وفهم السنة ما صنع الامام علي كرم الله وجهه عند إرساله ابن عباس رضي الله عنهما لجدال الخوارج ، إذ أمره أن يتوخى جدالهم بالسنة حرصاً على ألا يخطئوا في فهم القرآن وتأويله ؛ وما ذاك إلا لما ذكرنا

(٦) وتقول أيها الأستاذ (وإذا كانت النصوص صريحة بينة الأغراض ففيم اختلف فقهاء المذاهب الكثيرة المتعددة الخ

وأقول لك إن سبب الخلاف بين فقهاء المذاهب ليس اختلاف البيئة والثقافة مع غموض الأدلة ، ولكن السبب الأكبر هو اختلاف علمهم بالأدلة أولاً ، ثم تفاوت مراتبها عندهم قوة وضعفاً ، وقد كانت السنة آنئذ تتلقى من أفواه الشيوخ . وقد يبلغ الفقيه حديث لم يبلغ الآخر ، أو يكون هذا سمعه بطريق أقوى من طريق الآخر ، وهذا عندي السبب الأكبر في اختلاف الفقهاء . ولذلك قال الشافعي إذا صح الحديث فهو مذهبي . ونحن لا ننكر اختلاف الأفهام في الاستنباط أصالةً ، ولكنا ننكر لزوم أن يكون ذلك من آثار البيئة والثقافة ، فاختلاف الأفهام جار حتى بين أبناء المدرسة الواحدة والبيئة الواحدة كما هو مشاهد ، فلا يصلح دليلاً لتأثر الفقه الاسلامي بالفقه الروماني

(٧) واستطرفت أيها الأستاذ الأديب تمثيلي للصراحة بقولنا مثلاً لا تكذب قائلاً : « إن هذه المسألة على وضوحها الشديد محل خلاف تعدى إلى كتب البلاغة) والكلام إنما هو تمثيل للصراحة لغة ، وفرق بين رسوم الألفاظ وحدودها المنطقية وبين صراح مؤدياتها اللغوية

ثم إني لم أمثل بهذا إلا توضيحاً لكون الكلام العربي الصريح لا يختلف معناه على حسب الأزمان والبيئات ؛ ويدل على هذا قولي بعد ذلك : وأرى أننا لو نقلنا خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع مثلاً ونشرناها اليوم لما فهم منها ، أي اجمالاً ، من يعرف مدلولات الكلام العربي من مثقفي اليوم إلا ما فهمه عشرات الألوف من المسلمين حينما خطبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك الموقف الرهيب قبل ثلاثة عشر قرناً ونصف)

وهذه ميزة للغة الضاد يجب ذكرها على حين أن بعض اللغات سواها قد تغيرت وتطورت تطوراً كاد يجعلها مقطوعة الصلة بينها وبين ماضيها قبل مائتي سنة

(٨) وأما استغرابك لقولنا إن أغلب النصوص الفقهية من السنة ، فيذهب إذا علمت أن آيات الأحكام جاءت جلها إن لم نقل كلها مفسرة موضحة بالسنة ، فالسنة مع كونها مصدراً خاصاً لبعض الأحكام فهي في بعض واسطة بين الكتاب وبين الفقهاء في فهم آيات الأحكام ، وبهذا تعلم أغلبية الأدلة الفقهية التي من السنة وإن كان أغلبها في الحقيقة تفسير ما أجمل الكتاب ، وهذا معنى التبيين في قوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل اليهم) الآية

(٩) ثم قلت أيها الفاضل مستدلاً على تأثر الأوزاعي بالفقه الروماني : (إن الرومانية حكمت الشام قطعاً ، وكان ذلك الحكم لقرون كثيرة قطعاً ، وكانت الدولة الرومانية وحكمها الشام قبل الاسلام قطعاً . . . ثم قلت وكان الاسلام هو الذي خلف على ذلك بلا شك ، وكان لهذا على طول الزمن أثره الذي تختلف به

الشام عن الحجاز مثلاً ، ولا بد والأوزاعى ابن هذه البيئة الحديثة العهد بهذه الحال الرومانية فلتلك البيئة وهاتيك الثقافة أثرها المحتوم فى تكوين الأوزاعى الخ . فلو سلمنا جدلاً بصلاحيـة الفقه الاسلامى وقبوله للتأثر بالبيئة والثقافة كما تعتقد أيها الأستاذ الفاضل ، فالشام لم يفتح فى عهد الأوزاعى ولكنه فتح فى عهد عمر رضى الله عنه ، والأوزاعى ـ وهو من تابعى التابعين ، ومن الطبقة السابعة من الرواة ، ومن أهل القرن الثانى ـ لم يأت إلا وقد انصرم ، أو كاد ينصرم بعد رسوخ الاسلام فى الشام جيل كامل . ثم إن الاسلام من شأنه أنه لم يفتح بلاداً وتطأها أقدام جنوده الأبطال إلا وينقل اليها معه حضارته وآدابه وأحكامه ، وأصرحُ من ذلك أن أقول إن الاسلام لم يفتح البلاد ويتولى الشعوب إلا لينسخ أدياناً ويقر مكانها ديناً واحداً ، ويهدم قوانين ويبنى بدلها قانوناً جديداً مفرداً ، ويجتث حضارات ويغرس محلها حضارة واحدة ؛ فالاسلام لم يفتح أرضاً ولم يحكم شعباً إلا ليؤثر فيه ـ يا مولاى الأستاذ ـ لا ليتأثر به

وقد تولى الاسلام الشام منذ عهد الخليفة الثانى وأسبغ عليه من روحه وثقافته وتعاليمه حتى غدا إسلامياً صبغةً وروحاً ، ومضى على ذلك زمن ، ولم يأت الأوزاعى إلا والشام فى دينه وروحه وثقافته إسلامى صرف ، ولم يبق به من ثقافة الرومان عين ولا أثر . فالأوزاعى وليد بيئة إسلامية وثقافة إسلامية ، فتسرب الثقافة الرومانية اليه بعد أن اندثرت وسحب الدهر عليها ذيل النسيان وحل محلها ماهو خير ثقافة وأعدل حكما ـ من البعد بحيث لا يستسيغه عقل المتثبت الحازم

(١٠) والعجيب أيها الأستاذ الفاضل أنك فى آخر ردك على مقالى قلت لا أدع منه عبارة ختامية تلك هى . . . إن الفقه الرومانى جديد لفَّقَه جماعة من العلماء وتحقق أنهم أخذوه من الفقه الاسلامى ، وهذا ما يجب ألا يعتقد خلافه كل مسلم ، قائلاً بل أقول . . . لسنا فى شىء من المطالبة بهذه العقيدة فى الفقه الرومانى ، فليست أصول الاسلام ستة ، تلك الخمسة المعروفة ثم سرقة الفقه الرومانى من الفقه الاسلامى الخ)

ولا أدرى ماذا أردت بأصول الاسلام الخمسة ؟ فان كنت تريد بها أركانه التى أولها الشهادتان وآخرها الحج ، فالاستنتاج عجيب ، لأننى لم أقل إن هذا الاعتقاد ركن من أركان الاسلام ، بل غاية ما فى الأمر أنى قلت إنه واجب ؛ وواجبات الاسلام يامولاى الأستاذ أكثر من أن تكون ستاً أو ضعفها ، فاذا ضممت اليها الواجبات الاعتقادية والأعمال والتروك صارت أكثر من أن تحصر ! فبأىّ منطق استنتجت من قولى ما لم أقله ، وألزمتنى على هذا القول بأن أصول الاسلام ستة ؟ ولا يفوتنى هنا أن أقول لك أيها الأستاذ إن أدبك الجم قد سمح لك أن تنصحنى بأن أعدل رأيى فى هذه الأشياء قبل أن أهتم بمسألة الفقه الرومانى وأخذه أصوله من الفقه الاسلامى أو تأثر الفقه الاسلامى فتلك مسائل متأخرة ، ولكنى هنا لم يطاوعنى أدبى معك — مهما كان بالنسبة إلى أدبك — أن أقول لك مقال الناصح المشفق إنه يحسن أن تصلح منطقك أولا قبل التعرض لتطبيقه على مثل هذه الأمور

وفى الختام أقول لك إنه ليس من الخير أن يتذرع الكاتب للتغلب على مناظره بتحقيره أو مغالطته ، وأعتقد أنك أعلم بأدب الحوار والمناقشة من أن أنبهك اليه والسلام عليك

سنغافوره صالح بن على الحامد العلوى



نهر النيل

كما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته

بقلم رشوان أحمد صادق

جاء ذكر النيل فى كثير من المؤلفات العربية التى وضعها جغرافيو العرب من أمثال الادريسى وياقوت الحموى والاصطخرى وابن سعيد الجيهانى وغيرهم كثير . على أن ابن خلدون وصف هذا النهر وصفاً بديعاً فى مقدمته المشهورة

وقبل أن نتحدث عن مقال ابن خلدون عن نهر النيل يحسن بنا أن نذكر الحقائق الآتية :

أولا : اطلع ابن خلدون على أبحاث من سبقه إلى هذا الموضوع وحاول أن يوفق بينها وبين ما سمعه من الأحاديث المختلفة عن نهر النيل

ثانياً : لم يذهب ابن خلدون إلى أعالى النيل ولكنه ربما زار بعض أجزاء النهر السفلى مثل الأراضى المصرية

ثالثاً : إن ابن خلدون قد وصف بعض أجزاء نهر النيل بدقة جعلت الكثير من العلماء يهتم برسالة هذا الرجل الفيلسوف

رابعاً : إن العهد الذى كتب فيه ابن خلدون كان عهد اجتهاد من حيث البحث عن منابع النيل، إذ كانت مسألة النيل من الأمور الغامضة ، ولم تتح الفرص لفك لغزه أو الحصول على معلومات حقيقية عنه مبنية على أبحاث دقيقة إلا بعد أن وطد محمد على الأمن فى أعالى النيل ، وبذلك سهلت مهمة من قام بهذا العمل

والآن نذكر أقوال ابن خلدون عن نهر النيل ثم نعقب عليها

قال : « فأما النيل فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الأقليم الأول ويسمى جبل القمر ولا يعلم فى الأرض جبل أعلى منه . تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها فى بحيرة هناك وبعضها فى أخرى ، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها فى بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل ، ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمته ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر ، فاذا جاوزها تشعب فى شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجاً وتصب كلها فى البحر الرومى عند الاسكندرية ، ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه . ويذهب الآخر منعطفاً إلى المغرب ثم يمر على سمته إلى أن يصب فى البحر المحيط وهو نهر السودان وأممهم كلهم على ضفتيه »

من ذلك يتبين إلى أى حد كانت معلومات ابن خلدون عن هذا النهر . أما عن أعالى النهر فمعلوماته قاصرة على السماع وعلى ما وصل إلى علمه من كتب من سبقه إلى ذلك الموضوع . وعلى الأخص كتاب بطليموس الذى ذكر ذلك بوضوح ونقل عنه الادريسى وغيره . ولكن فى كلام ابن خلدون مسألة مهمة ألا وهى ذلك النهر الذى يتجه غرباً ويصب فى البحر المحيط ما هو ذلك النهر الغربى ؟

أكان ابن خلدون متأثراً بالآراء القديمة من أمثال رأى هيرودوت الذى يقول بأن النيل يتجه غرباً إلى المحيط ؟ أم كانت عنده معلومات عن نهر الكنغو وظن أنه يتصل بالنيل كما كانت هذه الفكرة سائدة إلى زمن ليس ببعيد ؟ أم كان يعرف نهر النيجر وظن أنه فرع من النيل لقرب منابع بعض نهيراته من منابع بعض نهيرات حوض تشاد القريبة من منابع بعض نهيرات النيل ؟

ولكى نوضح هذه المسألة نقول : إن ابن خلدون ربما كان يقصد أحد هذه الآراء الثلاثة الآتية :

١ — يقول ابن خلدون إن هناك نهيرات تنبع من جبل القمر ثم تصب فى بحيرتين ، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها فى بحيرة واحدة عند خط الاستواء ، ويخرج من هذه البحيرة نهران يتجه أحدهما نحو الشمال والآخر نحو الغرب ويصب فى المحيط

لعله كان يقصد بحيرة فكتوريا وبحيرة ادورد ، وأن البحيرة

الثالثة هي بحيرة البرت ، والنهر المتجه شمالاً هو بحر الجبل والمتجه غرباً هو الكنغو

والقاعدة فى هذا الفرض أن المنطقة بين النيل والكنغو غير محدودة تماماً ، كذلك ليست شديدة الارتفاع ، وفى زمن الأمطار الشديدة قد تكون هذه المنطقة عبارة عن شبكة من المجارى المائية التى يصبح من المتعذر تتبعها خصوصاً وأن تلك الجهات كانت غير معروفة تماماً ، وأن المعلومات عنها كانت منقولة عن التجار العرب والزنوج

فان كان ابن خلدون يقصد ذلك - وهو الأرجح - فذلك دليل على ذكاء ذلك الرجل الفيلسوف والعالم المحقق

ولقد ظلت فكرة اتصال النيل بالكنغو زمناً طويلاً فى عالم الوجود قبل أن يكشف تماماً عن نهر الكنغو

٢ - أما عن الرأى الثانى فنقول إن ابن خلدون ربما قصد بالبحيرة الثالثة منخفض بحر الغزال (بحيرة نو واقليم السدود ومنخفض بحر الغزال) . فالواقع اننا عندما نتتبع هذه المنطقة على الخريطة قد لا نتبين تماماً مقدار عظمها ، ولكن إذا ما اطلعنا على مذكرات بعض التجار الذين قطعوا هذه المسافات من أمثال الزبير باشا نتبين تماماً أن هذه المنطقة تظهر لأول وهلة كأنها مستنقع عظيم السعة . فلقد ذكر الزبير باشا فى مذكراته أنه ضل الطريق وسط هذا المستنقع اثنى عشر يوماً حتى كاد يشرف على الهلاك

فربما كان ابن خلدون يقصد بالبحيرة الثالثة هذا المستنقع العظيم . وان النهر الذى يتجه غرباً هو بحر العرب وروافده . . وربما وصلته أخبار عن النيجر وحوض تشاد فظن أن بحر العرب يتصل ببحيرة تشاد وهذه الأخيرة تتصل بالنيجر إلى (البحر) المحيط

ولقد كان يظن أن النيل يتصل بنهيرات بحيرة تشاد وهذه تتصل بأعالى النيجر ، وبقيت تلك الفكرة سائدة إلى أن ذهبت البعثة الفرنسية وطافت حول بحيرة تشاد وأثبتت أن حوض تشاد منفصل عن النيل وعن النيجر تماماً

وربما كانت تلك الفكرة بعيدة عن ذهن ابن خلدون ، ومع ذلك لا مانع من ذكرها خصوصاً وان فكرة اتجاه النيل غرباً كانت سائدة فى قديم الأزمنة

٣ - أما عن الرأى الثالث فربما قصد ابن خلدون بالبحيرة الأولى ، بحيرة رودلف ، وظن أن نهر أومو الذى يتصل بها متصل بنهر أوكوبو أحد أفرع السوباط ، وأن البحيرة الثانية هى فكتوريا ، والبحيرة الثالثة هى نو (ومنخفض بحر الغزال واقليم السدود) ، وأن النهر الغربى هو بحر العرب ويتصل بحوض تشاد ، ثم حوض تشاد يتصل بحوض النيجر ، ثم ينصرف الأخير الى المحيط كما سبق أن بينت ذلك فى الرأى السابق

ومما جعلنا نحتمل وجود هذا الرأى على الرغم من ضعفه هو قرب بحيرة رودلف من ساحل أفريقية الشرقى ، إذ أنه معروف أن التجارة كانت تنقل من أعالى النيل الى ساحل أفريقية الشرقى حيث يمكن تبادلها مع سكان الساحل الاسيوى المقابل لساحل أفريقية الشرقى ، وكانت الأخبار تنقل مع التجار العرب أو الزنوج ، ومن ضمن هذه الأخبار المعلومات المختلفة عن منابع النيل واقليم البحيرات

ولما كانت بحيرة رودلف قريبة من ساحل أفريقية الشرقى فلا يبعد على الظن أن تكون ذكرت كمنبع للنيل

ولعل تلك الفروض كانت راجعة الى عدم معرفة هذه الجهات بالدقة أيام أن كتب ابن خلدون رسالته ، وان كل ما ذكر عنها كان عن طريق النقل والسماع الذى لا يخلو من المبالغة والخطأ ، زد على ذلك قلة المعدات العلمية وآلات الضبط والمقاييس المختلفة بعكس ما نحن عليه الآن من تقدم

والآن ندخل فى التفاصيل التى ذكرها الفيلسوف ابن خلدون عن بقية نهر النيل

قال يصف البحيرة الثالثة : « فى أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال ويقسم ماءها الى قسمين فيمر الغربى منه الى بلاد السودان مغرباً حتى يصب فى البحر المحيط »

وفى ذلك اشارة الى خط تقسيم المياه بين النيل والكنغو ، ونرجح ذلك إذا ما علمنا أن شاطئ بحيرة البرت من الجهة الغربية تحف به الجبال ، ثم خلف هذه المرتفعات أى فى الجهة الغربية منها توجد المجارى المائية التى تمد نهيرات الكنغو ، فلا يبعد على الظن أن يكون ابن خلدون قد اعتبر منابع الكنغو

وراء هذه الجبال المتاخمة لشاطئ بحيرة البرت الغربى جزءاً متمما لهذه البحيرة خصوصاً وهـذه المنطقة تحتوى على عدد عظيم من النهيرات ، فهى عبارة عن شبكة مائية يصعب تحديدها خصوصاً فى أوقات الأمطار الشديدة والفيضانات حيث تظهر كمتسع عظيم من المياه

وربما قصد ابن خلدون بهذه المرتفعات مرتفعات دارفور التى تفصل مياه وادى الكوه ووادى جندى المتصلين ببحر العرب عن وادى بحر السلامات المتصل بنهر شادى المتصل ببحيرة تشاد

وربما قصد بهذه المرتفعات مرتفعات بندا التى تفصل بين مياه بحر الغزال من جهة ونهر شادى المتصل ببحيرة تشاد من جهة أخرى . إذ أن نهرى الجبل والغزال يكونان حوضاً منخفضاً فى الوسط وحافاته مرتفعة ، وما ارتفاع الجهات التى تفصل حوض الغزال عن حوض تشاد إلا لهبوط الانخفاضات المجاورة التى فيها بحر الغزال وحوض تشاد

أما عن بقية نهر النيل فقد قال ابن خلدون : « ويخرج الشرقى منه ذاهباً إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما . وينقسم فى أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله فى البحر الرومى عند الأسكندرية ورشيد ودمياط ، ويصب واحد فى بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر فى وسط هذا الأقليم »

وفى ذلك اشارة إلى فروع النيل وتغيرها فى عهد العرب وما بعده عما كانت عليه فى عهد البطالسة ، فقد زالت المصبات الشرقية كلها تقريباً

ويقول أيضاً « وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان ، وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقله وهى فى غربى هذا النيل ، وبعدها علوه وبلاق ، وبعدها جبل الجنادل على ست مراحل من بلاق فى الشمال ، وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب فى مهوى بعيد صباً مهولاً فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد ، وكذا وسق مراكب الصعيد إلى فوق الجنادل ، وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة ، والواحات فى غربها عدوة النيل وهى الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة »

وفى ذلك اشـارة صريحة إلى الشلالات التى تعترض النيل قبيل أسوان والتى تكون بمثابة عقبة ، إذ نجد الانحدار شديداً . ويظهر أن المنطقة التى يصفها ابن خلدون هى المنطقة المسماة الآن شلال حلفا ، وتبدأ بعد سراسن ، ومن بعدها بقليل نجد شلالات جيمى وابكه وطولها معاً أكثر من ١٦ ك . م ، وينحدر عندها النيل انحداراً شديداً . وهذه الجنادل هى التى يطلق عليها عادة شلال حلفا وهى كغيرها من الشلالات السابق ذكرها يرجع تكوينها إلى اعتراض الصخور البلورية الشديدة الصلابة فى مجرى النهر وتتكون منها الجزر

وأما عن لفظ (واحات) فربما قصد بذلك بقايا المدن الأثرية التى قامت على أنقاضها المدن الحديثة ، أو ربما أطلق هذا اللفظ على البلاد الموجودة فى هذه المنطقة الجدبة والتى تعتمد على الآبار لبعدها عن النيل

أما عن قوله إن الحبشة على النيل فربما قصد بذلك الفرع الذى يأتى من بلاد الحبشة وهو الأرجح ، إذ يقول : « بلاد الحبشة على واد يأتى من وراء خط الاستواء ذاهباً إلى أرض النوبة فيصب هناك فى النيل الهابط إلى مصر » . ويقول « وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر ، وبطليموس ذكره فى كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل »

وهذه إشارة إلى أنه لم يكن يعرف هضبة الحبشة ولا منابع النيل الأزرق . على أنه يتفق مع بطليموس فى أنه ينبع من جهات غير منابع النيل فى جبل القمر . وهذه المسألة مدهشة ، إذ أن النيل الأزرق كان معروفاً منذ أيام اراتستين ، وأن هضبة الحبشة كانت مجاورة لبلاد اليمن وذات حضارة ، فكيف لم يعلم شيئاً عن منابع النيل الأزرق بينما رسم كل من بطليموس والادريسى بحيرة تسانا ؟

ثم ذكر المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج الفارسى ، وقال عنهما : البحران الهابطان ، ثم ذكر بوغاز باب المندب والمنطقة المعروفة الآن باسم الارتريا ، ثم تكلم عن التجارة بين اليمن والسويس ، وذكر سواكن ، وتكلم عن الواحات الداخلة وعين مكانها ، وذكر النيل فى المنطقة بين المقطم (وجبل الواحات)

فى أوطانهم غرباء

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

إنما فى بلادنا الشعراء ... فئةٌ فى أوطانهم غرباء

لا رخاءٌ ولا أمانٌ ولا ما ... لٌ ولا عزّةٌ ولا سرّاء

ألمن يكذبون ذاك التملى (١) ؟ ... ولمن يصدقون هذا الشقاء ؟

ما جروحٌ تدمّى الجلود بها مثـ ... ـلُ جروحٍ تدمّى بها الاحشاء

ما شكوا أعباء الحياة وان كا ... نت ثقالاً عليهم الأعباء

وإذا دافعوا عن الحق جهرا ... فهناك الويلات والارزاء

لم أجد للجمهور عطفا عليهم ... وكأن الجمهور منهم بَرَاء

انهم لا يرون من قومهم برْ ... راً ولا تقديراً وهم احياء

وإذا ما لقوا الردى فعليهم ... يكثر الحزنُ منهم والبكاء

تلك أخلاقهم وقد ورثتها ... سنناً من آبائها الأبناء

ليس هذا فى يومنا وحده جا ... رٍ وعلّ الأيام طراً سواء

إنما دنيانا لقوم جحيمٌ ... ولأقوامٍ جنّةٌ غنّاء

* * *

ولقد أخّر الألى قرضوا الشعـ ... ـرَ نفوسٌ لهم بها كبرياء

واجتنابُ الرياء منهم بعصر ... شاع من أجل العيش فيه الرياء

شعراء العراق كل سنيهم ... سنةٌ فيها تخلف الأنواء

اننى أطلب العزاء لنفسى ... فى أساها ، وأين منى العزاء ؟

لهفَ نفسى على القريض فقد هبّـ ... ـت عليه تشله النكباء

عبثت فى الربيع بالروض حتى ... ملأته من زهره الاشلاء

وإذا الورد فى الربيع تولّى ... فعلى ذلك الربيع العفاء

جفّت الدوحة التى كل صبح ... فوقها كانت تهتف الورقاء

وعلى الزهر قد تصوّح عندى ... زفرة تصطلى بها الاحشاء

بسمت فى ربيعها لذُكاء ... كلما أشرقت عليها ذُكاء

أيها البلبل الذى يتغنّى ... لا يسمُكَ الهوانَ هذا الغناء

* * *

أيها الشعر أنت أشجى أنين ... نزعته من نفسها الحوباء

أنت فى اسماع الأشايب موسيـ ... ـقى وفى أعين الشباب ضياء

وإذا كنتُ الدهرَ للشعر أُطرى ... فقليلٌ منى له الاطراء

وكأن السماء ديوان شعر ... بعضُ أبياته النجومُ الوضاء

وكأن المجرّ والليلُ صافٍ ... كدموعى قصيدةٌ عصماء

لم يكن بالشعر الغرامُ قليلاً ... غير أن العراق منه خلاء

أحسنُ الشعر ما بنته على ما ... شعرت فى حياتها الشعراء

غير أن التقليد فيه كثيرٌ ... وقليلٌ على الشعور البناء

وأجلّ القريض ما استحسنته ... حين يُتلى العقولُ والاهواء

ونصيبُ الكثير منه بوارٌ ... ونصيبُ القليل منه البقاء

(بغداد) جميل صدقى الزهاوى

(١) الاستمتاع

وذكر بلدة اسنا وأرمنت وأسيوط وقوص وصول ، وقال عند الأخيرة يتفرع النهر إلى فرعين : فرع يذهب إلى اللاهون ويقصد بذلك بحر يوسف ، ثم ذكر عيذاب

من ذلك يتبين لنا أن معلومات ابن خلدون عن نهر النيل كانت مستمدة من كتابات من سبقوه إلى هذا الموضوع ومن الرواة كذلك ، ولكن يجب أن نعترف بأن ذكاء هذا الرجل ومقدرته العلمية جعلاه يضع هذه المعلومات فى قالب يقبل العقل الجزء الأكبر منه . فلقد ذكر بعض الجهات وعلل وجودها أحسن من غيره بكثير ، ومع ذلك فان له عذره ، إذ أن السياحة إلى مثل تلك الجهات كانت من الصعوبة بمكان ، ولم يكن هناك آلات دقيقة ولا معدات علمية تساعد على ضبط الأماكن بالدقة ، زد على ذلك فقد الأمن فى تلك الجهات وصعوبة ارتيادها ، ومع ذلك فان كتابات ابن خلدون جاءت معتدلة خالية من القصص الخرافية بعيدة عن المبالغة والخلط بين المعلومات والمعتقدات ؟

رشوان أحمد صادق
B. A فى الجغرافيا

المساء

بقلم أمجد الطرابلسي

هوَ ذا الليلُ قد أطلَّ منَ الأفْ　　قِ فعمَّ الفضاءَ صمتٌ رهيبُ
جاء يختالُ فى غلائلِهِ السُّو　　دِ وفى وجههِ عُبوسٌ مَهيب
فتولتْ ذُكاءُ جازعةَ النُّو　　رِ وفرّت وقد علاها الشُّحوب
بسطت للوَداعِ أىَّ شُعاعٍ　　شاحبٍ قد أمضَّهُ التأويبُ
ما ترى الأُفقَ قد توَرَّدَ حزناً　　إنهُ منْ دمِ النهارِ خَضيب
كانَ ساحَ الوغَى وقد ظَفِرَ الليـ　　ـلُ كما يظفرُ القوىُّ الغَصوبُ
وتولى النهارُ ، أىَّ طعينٍ　　مُستضامٍ تسيلُ منهُ النُّدوبُ
مأتمَ الشمسِ أهكذا الكونُ بغىٌ　　ودماءٌ طليـلةٌ وحروب
إنْ غدا الليلُ ظافراً فكذا النو　　رُ على الأرضِ عاجزٌ مغلوب
هكذا يَظفَرُ الظلامُ ويخبو　　لهَبُ النورِ فى الدُّنا ويَخيب
هكذا سُـنَّةُ الحياةِ غِلابٌ　　وكذا الحقُّ هيِّنٌ مغصوب
وأطلَّ الرّاعى ينوح على الشمـ　　ـسِ كما ناحَ فى الرُّبى العندليب
هبَطَ القريةَ الحزينـةَ يبكى　　وتعالى حُـداؤُهُ والنَّحيب
أكذاكَ الأكواخُ يغمُرُها الصمْـ　　ـتُ ويعلو الحقولَ هذا القُطوب؟
أكذاكَ الطيورُ تَندُبُ شجْواً　　ويَعمُّ الرُّبى الظلامُ الرحيب؟
أينَ سهلٌ يموجُ فى لُجَجِ النو　　رِ ووادٍ جمّ الظِّلالِ عَشيب
أين لحنُ الحياةِ تُنشِدُهُ القرْ　　يةُ ؟ أينَ المِراحُ ؟ أينَ الوُثوب
فبكى والقطيعُ بينَ يديهِ　　خافِتُ الخطْوِ والثُّغاءِ ، كئيب
ومشى فى الظلامِ يبكى على النو　　رِ كما سارَ ثاكِلٌ مَحْروب
يصْرُخُ النّاىُ فى يديه فتبكى　　لِبُكا الناىِ أعيُنٌ وقلوب
هى أُنشـودةُ الوَداعِ يُغنّيـ　　ـها وقد حانَ للضيـاءِ غُروب
هى أنّاتُ شاعرٍ عبقرىٍّ　　عَشِقَ النورَ واستبَتْهُ الغُيوب
أيُّهذا المساءُ فيكَ منَ المو　　تِ دُجاهُ وسِرُّهُ المحجُوب
العفاءُ الدجىُّ مثلُكَ رَحْبٌ　　وشبيهٌ بكَ الفناءُ الجديب
هكذا تنطَفِى الحياةُ ويَغشا　　ها سُكونٌ منَ الفناءِ مُريبُ
هكذا تسكُنُ الأمانىُّ للمو　　تِ ، ويَبْلى ثوبُ الحياةِ القَشيب
وتغوصُ الرِّكابُ فى ثَبَجِ الرمْـ　　ـلِ وتخفَى مَهامِهٌ وسُهوبُ
ويَضيعُ الضَّجيجُ فى العَدَمِ القَفْـ　　ـرِ وتَمحَّى معالمٌ ودُروبُ
نامَتِ القريةُ الحزينـةُ إلاَّ　　ساهراً نومُهُ الهنىءُ سليب
لِمُناهُ بينَ الأضالعِ همْسٌ　　ولِخفّاقِهِ المُلِحِّ وجيب
ظَلَّ سهْرانَ يرْقُبُ الأنجمَ الزُّ　　هْرَ تهادَى كما تهادى حبيب
علِقَت عينهُ السماءَ ذُهولا　　واستباهُ هـذا الفُتونُ العَجيب
فى فِجاجِ السماءِ عُرْسٌ بَهِىٌّ　　وعلى الأرضِ مأتمٌ وكُروب
فهُناكَ النجومُ تطفَحُ بِشْراً　　وهنا الليـلُ حالِكٌ غِربيب
زغرَدتْ فى السماءِ أنجُمُها القُزْ　　حى وغنَّى بعيـدها والقريب
وتبدتْ تختالُ عُجباً كما تخْـ　　ـتالُ بينَ الشُّفوفِ خُودٌ لعوب
هكذا تضْحَكُ السماءُ منَ الأرْ　　ضِ كما يضحكُ الخلىُّ الطروب
إيهِ يا ليلُ رُفَّ فوقَ خلىٍّ　　لم تُؤرِّقْهُ لَوعةٌ وخُطوبُ
وانشُرِ الحُلْمَ والطّيوفَ لِصَبٍّ　　لم يُنغِّصْ نعيمَه تعذيب
لستَ يا ليلُ لِلّذى ألِفَ السُّهْـ　　ـدَ كما يألفُ الغريبَ الغريبُ
أنا يا ليلُ ليس لى من سكونِ الـ　　ـكوْنِ أو هدْأةِ الظلامِ نصيب
حسبُ قلبى ظلامُهُ ودُجاهُ　　وأساهُ المُبرِّحُ المشبوبُ
لىَ ليْلانِ ساهرانِ وغيرى　　ليلُهُ باسِمُ الطيوفِ خصيب
أنا أحيا الحياةَ ليلا طويلا　　أفيَصْفو لِىَ الدُّجى ويطيب؟
إطْوِ يا ليلُ هذه السُّجُفَ السُّو　　دَ فكم تحتَ جُنْحِها مكروب
كم قلوبٍ وجيعَـةٍ ونفوسٍ　　تحتَ هذا الدُّجى تكادُ تذوب
يا إلٰهى سئمْتُ هذى الدَّياجى　　إن فى القلبِ ظُلْمةً لا تَغيب
أنا كهفٌ مهدمٌ مُستباحٌ　　فيـه للحُزْنِ والشكوكِ نَعيب
يَصْفِرُ الغمُّ فى دُجاهُ كما تصْـ　　ـفِرُ فى الليلِ شَمْألٌ وجَنوب
أقطعُ الليلَ ساهراً ذاهِلَ الفِكْـ　　ـرِ وفى الصدْرِ للهُمومِ شُبوب
غارِقاً فى هَواجسى وذُهولى　　وعلى العَيْنِ للسُّهادِ رَقيب
شاقنىَ النورُ يا إلٰهى ولـكنْ　　أينَ منِّى السّنا وأينَ اللّهيب؟
شاقنى الشَّدْوُ والغِناءُ ولـكنْ　　أينَ منى اللُّحونُ والتَّطريبُ؟
... ...　　... ... ...
للضِّياءِ الحبيبِ يا نفس فى الأرْ　　ضِ مغيبٌ وللحيـاةِ مغيب
لا يرُعْكِ الظلامُ إن ملأَ الكوْ　　نَ فإنَّ الصَّباحَ سوف يؤوبُ

دمشق　　　　**أمجد الطرابلسي**

ما يحتويه قانون العقوبات الألماني الجديد

نظريات جديدة
فى فهم العقوبة والمجتمع

كانت الحكومة الألمانية قد انتدبت منذ حين لجنة من كبار المشترعين (الهتلريين) لبحث مبادئ العقوبة الجنائية التى يجب أن تتمشى مع مبادئ الثورة الاشتراكية الوطنية ومبادئ حزب (النازى) ؛ وفى الأنباء الأخيرة أن التعديلات الجديدة لقانون العقوبات الألمانى قد صدرت متضمنة لمبادئ جديدة عجيبة فى تعريف الجريمة وتحديد معنى العقوبة الجنائية لم يسمع بها من قبل فى أى بلد متمدين . وقد قرأنا فى هذا الموضوع مقالاً قيماً لكاتب فرنسى كبير ، فرأينا أن نترجمه لقراء (الرسالة) فيما يلى :

يقول زعماء الأمبراطورية الألمانية الثالثة (الزعماء الهتلريون) إن قانون العقوبات هو « مرآة صادقة للروح القومى »

ونحن فى فرنسا نتأثر منذ قرون بالقانون الرومانى القديم الذى اشتقت منه ثورة سنة ١٧٨٩ (الثورة الفرنسية) مبادئه الجوهرية ، ولكن الهتلريين يرفضون هذه المبادئ باشمئزاز ، ويقولون ما معنى هذا الاجلال الخالد لقصاصة من الورق ؟ إن التعلق بحرفية النصوص ينم عن ذهنية متأخرة وضيعة . والقانون يقوم على حقيقة حية هى « ضمير الشعب » ، ولا غاية لقانون العقوبات إلا أن يحمى هذا الضمير

ونحن فى بلادنا ذات المبدأ الانفرادى ، نقدس ذلك المبدأ الأساسى العظيم : « لاعقوبة بغير نص » Nulla poena sine lege ولكن المشترعين الألمان الجدد يقولون : إنه لا يوجد قانون فى العالم يمكن أن يتحوط بنصوصه العقابية لكل الأعمال البشرية الممكنة ، وإذن يجب على قضاتنا أن يعاقبوا أيضاً على الأعمال التى لم ترد فى القانون « متى كانت تثير الرأى السليم المتزن للمجتمع »

وكذلك نبذ المشترعون النازيون مبدأ أساسياً آخر هو « عدم رجعية القوانين » (أو عدم سريانها على الماضى) ، وعلى هذا فان محكمة لايبزج العليا قد حكمت بالاعدام على فان درلوبى مع أنه فى الوقت الذى وقع فيه حريق الريخستاج لم يكن القانون يعاقب على هذه الجريمة إلا بالأشغال الشاقة . وإذا كنا نحن نرى من المثير أن نطبق على المجرم قانوناً كان يستحيل عليه أن يعرفه ، فان المشترع الألمانى يقول إنه يجب عليه (أى المجرم) أن يعرف إلى أى حد يمكن أن يثير بعمله السخط العام

ونحن من جانبنا يصعب علينا أن نعترف بقانون عقوبات لا يعترف « بالحريات الفردية » ، فانه إذا عدمت هذه الحريات أضحى المشترع حكما متعسفاً لا غير . وهذا ما حدا برجل مثل رامون فرنانديز أن يقول إن صوغ القانون الشيوعى الجديد ، والقانون الفاشستى الجديد « لايتميز فقط بسحق القانون القديم ، وإنما يتميز بسحق الحقوق جميعاً » ؛ بيد أنه يجب أن نعترف على رغم اشمئزازنا بأن الهتلريين يقومون بتحويل الحقوق . ذلك أن الشعب هو الذى يرفعونه فوق كل شىء ؛ والشعب ، لا الفرد ، هو الذى يريدون حمايته بادئ ذى بدء ؛ وهو تحويل فى القيمة يتمشى مع استبدال المبادئ الحرة القديمة « بمجتمع دولة عام »

ومن مبادئنا أننا نريد أن تحدث القوانين والظروف دائماً أثرها لصالح الفرد ، فاذا عدل قانون ، فاننا نطبق عليه أخف النصوص ؛ فاذا تطرق الشك إلى ذهن القاضى وجب عليه أن يحكم بالبراءة ؛ وكل متهم يعتبر بريئاً حتى يفصل فى قضيته ، وهذه كلها مبادئ يمقتها الهتلريون

فهم يصيحون : أليس فظيعاً أن نضع المجرم فى ذروة قانون العقوبات ؟ وأن نعكف بشغف على درس نفسيته باسم الدفاع عنه ؟ لقد انحدر علماء الجنائيات فى الأمم الديمقراطية إلى هذا الدرك ، أعنى إلى درك « الحق الزائف » أو « الحق المعدوم »

والواقع أن ميولنا الفردية تجنح إلى التساهل مع المجرم ؛ فمتى حللنا البواعث التى دفعت المجرم إلى ارتكاب جرمه ، فقد فهمناها ، وعندئذ نعطف على المجرم عطف الانسان على الانسان ، بل لقد انتهى مشترعونا الجنائيون شيئاً فشيئاً لا إلى تحديد العقوبة ، ولكن إلى حب الاصلاح

وهذه حالة ذهنية لا يسيغها مشرعو الامبراطورية الألمانية الثالثة ؛ فهم يرفضون ، لا أن يحكم على برىء ـ ولكن أن يفلت مجرم من العقاب . وإذا القضاء لم يقدم ترضية كافية لسخط الشعب العادل حينما يطالب بالعقوبة ، فان النظام الاجتماعى يغدو فى خطر ، وتسرى إلى الشعب عوامل الهياج العام

ومن خواص هذه النظرية تقرير صنوف المشبوهين . وإذا كان القاضي يمثل الشعب حقاً ، فانه في زعم أولئك المشترعين لا يمكن أن يرتكب خطأ قضائياً ، ويكفيه دون أن يفتح القانون أو يرجع إلى ضميره الشخصي ، أن يستشير ضمير الشعب ، والشعب معصوم لا يخطئ ، وهو يكاد يتكهن ، وعواطفه هي التعبير عن العدالة ذاتها

ويقرر قانون العقوبات الاشتراكي الوطني أنه يمكن معاقبة مجرم لم يتمم جريمته ، ولكن « أراد أن يرتكبها » . وفي رأيه أن الجريمة ليست هي عمل القتل في ذاته بل هي « اعتزام القتل » ونحن في فرنسا نعاقب على « الشروع » في بعض الأحوال ؛ فلا يعاقب مثلاً ذلك الذي يجس جيب انسان من الخارج بنية سرقته ، ولكنه يقع تحت طائلة القانون إذا حاول أن يدخل يده في ذلك الجيب . فهذه الفروق القضائية الدقيقة يخشاها المشترع الألماني أيما خشية ؛ ولهذا يتخذ الرأي المناقض ويرى أن يضع تحت نظرية « العزم المهدد » أقل حركة تمازجها الشبهة

وهكذا نرى أن قانون العقوبات الألماني الجديد وكذلك الاجراءات الجنائية قد بسطت كل التبسيط . وقد ألغيت « الظروف المخففة » ولم يعترف « بسبق الاصرار » بحيث أضحت جريمة الهوى والجريمة التي دبرت طويلاً سواء في العقوبة ؛ ذلك أن المجموع يجب أن ينتقم بسرعة وبلا هوادة من أولئك الذين يعكرون صفوه ؛ وللقاضي أن يوقع عقوبات تبعية بعد تنفيذ العقوبة الأصلية مثل الجلد والصوم الجبري ، ومصادرة الملك ؛ وهكذا يراد أن يدفع الجانح الذهن إلى مرتبة انسان منحط من الوجهة الجسمية والعقلية

وقد ذهب المشترعون النازيون إلى حد اعتناق الروح الاسبارطي ؛ فالدولة لها الحق « أن تقضي بصفة ادارية بالموت على بعض الأفراد الذين ليست لهم قيمة جوهرية » فرجل مثل بيرون (لورد بيرون شاعر الانكليز) يمكن أن يلقى في الماء منذ مولده ؛ ورجل مثل هلدرلن الشاعر الهائم يمكن أن يعدم ؛ ويصرح قانون العقوبات الجديد للطبيب بأن يعدم المريض الذي لا يرجى برؤه متى طلب اليه ذلك . وبعكس ذلك فانه لما كان الفرد السليم مديناً بحياته للمجتمع ، يعتبر الانتحار جريمة ، ويعاقب الشركاء في محاولته . ثم إنه لما كان الشرف أثمن من الحياة ، فان القانون يعترف باجراء المبارزة بين المتخاصمين

ويكشف لنا المشترعون الهتلريون عن غايتهم النهائية فيما يأتي : ليس المجتمع هو الذي يكون غاية في ذاته ، ولكنه الجنس أو الأمة ؛ والعمل لعظمتها يجب أن يكون هو غاية الحياة لكل فرد

إن النزعة الفردية وحدها هي التي تدفع الفرد إلى حب الانسانية . ولكن الهتلريين باعتمادهم على القيم الاجتماعية ، يجنحون إلى أهم عناصرها ، أعني « القومية »

وعلى هذا فان قانون العقوبات عندهم يقرر صنوفاً جديدة للجرائم ؛ فمثلاً يعتبر « خائناً للوطن » من يجرح الاشتراكيين الوطنيين في عزتهم ، أو يهزأ باحتفالاتهم ، أو يسخر من أغنيتهم ، أو من ينوه بأعمالهم الهمجية ؛ وكذلك من ينتقص من اقدار الأبطال الماضين ، أو من يهين المحاربين القدماء . وهكذا نقلت الحماية الشرعية لشخص الانسان إلى حماية الحزب وإلى حماية الأمة

ثم إن الأمة عندهم تقوم على الجنس ، ويجب أن يحتفظ الدم الشمالي القديم بنقائه وتفوقه . وعلى هذا فانه ترتكب جريمة « خيانة الجنس » كلما امتزج الألماني (أو الألمانية) باليهود أو بالأجناس الملونة ، أو لذا امتزج علناً بزنجي وجرح بذلك « العاطفة الجنسية » لأمته . ويعاقب الزنجي بعقاب أشد لاعتباره انساناً منحطاً

ونحن نعرف أن الهتلريين أصدروا في العام الماضي قانوناً للتجارة ينظم العلائق بين العمال وبين أصحاب الأعمال على أسس جديدة . وقانون العقوبات الجديد يتأثر بهذه الأسس ؛ إذ المقصود أن ترتب بين المخدوم والعامل نفس العلائق التي كانت سائدة في العصور الوسطى بين السادة والأتباع . فالعامل يجب عليه الطاعة والاخلاص ، ولا يستطيع بعدُ أن يتولى الدفاع عن نفسه بنفسه ، بل يعتبر واقعاً تحت حماية السيد ، وعلى السيد أن يقوم بحماية مصالحه المادية والأدبية . صحيح أن قوانين العمل الاشتراكية (مثل قانون الثماني ساعات ، وقانون التأمينات وغيرها) لم تلغ ، وصحيح أنها ما زالت تطبق ، ولكن لا لحماية حقوق العامل ، بل من وجهة اجتماعية مشتركة ، لأن القضاء على النزعات المتمردة يؤكد تعاون العمل ورأس المال

فهل يعني ذلك كله أن حماية الفرد قد ألغيت بتاتاً ؟ كلا ؛ ولكن قانون العقوبات لا يهتم بشأن الفرد إلا باعتباره عضواً في

(البقية على صفحة ١١٩٨)

القصص

من أساطير الإغريق

بسيشيه وكيوبيد

للأستاذ دريني خشبة

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

فلما كان الغسق [(١)] سمعت إلى الباب ينفتح ، ويدخل فتى خفيف الخطى ، ويقبل عليها فيُحيي أحسن تحية بأرق صوت ، ثم يستأذن فيجلس إلى جانبها

وكان الظلام شاملاً ، فلم تستطع بسيشيه أن تتبيّن وجه الجالس إليها أو خلقه ، ولكنها كانت تسمع إلى موسيقى تمترج بصوته الحنون ، وكانت تحس كأن عبرات تكاد تخنقه ، لأنه يريد أن يبوح بشيء يمنعه الخجل من البوح به ... واقترب منها ...

وأخذا فى حديث شهى ، ولكن الحياء كان ما يزال يعقد لسانيهما ...

واقترب منها كذلك ...

وتماست الأجسام المرتجفة ، وليس كتماس الأجسام مفرّجاً عن الحب !

وأخذ الحبيب يد حبيبته بين كفيه ، فانتقلت الحرارة من هنا إلى هنا ، ثم دنا الفم من الفم ، واستراح الخد على الخد ، وبدأ طوفان القبل ... ...

وتمتم كل من الحبيبين بهذه الكلمة السماوية الخالدة :

« ... أنا ... أحبك ... »

***

ـ « كأنك أنت أيها الحبيب الصغير الذى أنقذتنى من براثن الموت ! ! »

ـ « أجل يا منْية النفس ، ورجيّة القلب ، بمعونة الإله الرفيق زفيروس »

ـ « أفأنت إله إذن ؟ »

ـ « لا أستطيع أن أذكر لك من ذلك الآن شيئاً ... »

ـ « إذن ما اسمك ؟ »

ـ « ولا هذا أيضاً ! »

ـ « أحب أن أراك ، فهل تأذن بإيقاد المصباح ؟ »

ـ « إذا حاولت أن تريني ، كان فراق بيني وبينك ! ! »

ـ « أنت تزعجني أيها الحبيب الصغير ... »

ـ « ولم أزعجك ؟ ... ألست قد أنقذتك من الموت ، وأسكنتك هذا القصر المنيف ، ولست أمُنّ عليك ! ! »

ـ « برغم هذا فانك تزعجني ... »

ـ « هاتى قبلة ... ودعى هذا الحديث الشاجن ... »

ـ « ... ؟ ... »

***

وظل يزورها كلما أقبل الليل ، فيمكث معها حتى مطلع الفجر آخذين فى عناق وقُبَل ، وحديث ألذ من قِطع الروض ، وأروح من رفيف النسيم ؛ ثم ينفصل على أن يعود لميعاده من اليوم التالى ... وبسيشيه راضية قانعة ، لا يضيرها ألا تعرف من هذا الحبيب الوفى ... ولا ما يكون اسمه ...

وذهبت تنشق أنفاس البحر فوق الشاطىء الطويل المزهر فلقيت أختيها فجأة تخرجان من زورق جميل ، فتعانقهما عناقاً حاراً ، ويغمرها للقائهما فرح كبير ، وتعود بهما إلى القصر ، وتطوف معهما حدائقه وغرفاته ، وتقف عند الصور والتماثيل ونافورات الزئبق ؛ وتدخلهما « هيكل الحب » كما اتفقت وحبيبها أن يسميا المخدع ؛ ثم تقص عليهما قصتها منذ اعتزامها الانتحار إلى أن تلقاها . . .

وتكون الغيرةُ قد أنشبت أظفارها فى فؤادى الفتاتين ؛

(١) الغسق أول ظلمة الليل

ويكون الحسد قد شاع فى نفسيهما الخبيثتين ، فتضمران لها الشر المستطير

— « ولكن كيف تطمئنين إلى هذا الحبيب يا أختاه ؟ ألا تخافين أن يكون غولاً أو هولة أو سعلاة ؟ لماذا إذن يأبى عليك أن تنظرى اليه ؟ أليس يخشى أن تفزعى منه إذا رأيته على حقيقته ؟ أيغرك منه كلامه الناعم الموشى ؟ لا يا أختاه ! نحن نخشى أن يقلاك يوماً أو يجفوك فيقتلك . . . ! لا بد أن تأخذى حذرك منه ! ولا بد أن تنتهزى فرصة يكون غارًّا فى نوم عميق فتوقدى المصباح وتنظرى اليه ، فان كان وحشاً أو هولة ، فاليك هذا الخنجر المرهف فاغمديه فى قلبه واستريحى منه ، وعودى معنا إلى أبينا الملك فانه جد مشتاق اليك . . . »

ودفعتا اليها الخنجر المسمم بغِلّهما ، وولتا عنها تختبئان فى أجمةٍ دانية . . .

وفعل كلامهما فى قلب أختهما فعله ، فلما كان الليل ، وغفا الحبيب الصغير مما ألم به من سكرة الحب ، نهضت بسيشيه إلى مصباحها فأوقدته ، وإلى الخنجر فشرعته ، وذهبت تنظر إلى العاشق البرىء . . .

فماذا رأت ؟

أجمل مخلوق على وجهك أيتها الأرض ! . . .

لقد كان نائماً حالماً ، فيه دعةٌ وفيه فتون . . . وملأ الفتاة حباً . . . فارتجفت . . . واهتز المصباح فى يدها . . . فسقطت نقطة من الزيت المشتعل على ذراع الحبيب فأيقظته . . . وفتح عينيه . . . فرأى إلى الخنجر المرهف فى يمين بسيشيه . . .

ياللهول . . . ! !

لقد قفز الحبيب قفزة هائلة ، ورف بجناحيه الصغيرين ، وقال :

« بسيشيه . . ! ياشقية . . ! وداعاً . . ! فلن نلتقى بعد اليوم ! ! »

وشاعت الحسرة فى قلب الفتاة فسقطت على الأريكة من الجزع والاعياء . . .

ما كاد كيوبيد يَرِفّ بجناحيه فيغادر القصر حتى امتلأ المخدع أرواحاً شريرة طفقت تهاجم نفس بسيشيه فى شدة وعنف ، وكلما نظرت هنا أو هناك رأت أفعوانات هائلة تنفث الموت الأسود من أنيابها البارزة الحوانى ، ثم أحست كأن القصر يرتجف ويميد ، ويكاد ينقض ، فهرعت إلى الخارج مهرولة ، وهرعت فى إثرها المخاوف والأشجان ، يحدوها الذعر والفزع الشديد

ونظرت فى السماء فلم تجد قمرها المنشود تبثه وتشكو اليه ، بل وجدت سُحُباً قاتمة تنعقد فى المشرقين والمغربين ، والوَدْق يخرج من بينها كما تخرج الزفرة من صدر مكروب ! وبدأت العاصفة الهوجاء تزلزل الجزيرة وتميد بالدَّوْح وترفع شياطين الموج فتجرف العامر واليَباب !

وأخذت الرياح الهوج تلاحق الفتاة حيثما ذهبت ، وترجم وجهها الكاسف المُغَضَّن بجمرات البَرَدِ أيان وَلَّت

ووهنت أعصابها فراحت تصيح فوق الشاطىء كالذى يتخطفه الشيطان من المس ، فلما لم يُلب نداءها أحد ، انثنت نحو القصر ، واطَّوَّفت بالأسوار تتفقد الباب الكبير الضخم . . . ولكن . . . هيهات ! لقد كان السور كتلة واحدة ليس بها منفذ ، ولم يكن غارقاً هذه المرة فى الطوفان الزاخر من أزهار الشيير والياسمين والبابونيا ، وكان عالياً على غير عهدها به ، حتى يكاد يستتر وراءه القصر الباذخ ؛ فلما استيأست من الدخول ، وشعرت بقلبها يتحطم ، وبنفسها تذهب شعاعا ، استلقت على الكلأ ، واستسلمت لنوم ممتلىء بالأشباح

وأشرقت الشمس فاستيقظت بسيشيه ، وتلفتت حولها فلم تر السور ولم تجد القصر ، وفركت عينيها تخال أنها تحلم ، ولكنها ترى الجزيرة جرداء إلا من شجرات قليلة من الشاهبلوط ؛ وإلا من غدير صغير به بقية غير مباركة من الماء النمير . . .

ويكون صوابها قد ثاب إليها ، فتيمم شطر الشاطىء تتفقد وروده ورياحينه ، ولكنها لا تجد إلا آلافاً من السراطين الميتة لفظها البحر بفعل العاصفة ، وإلا أكواماً من الوَدَعِ والمحار تحلل كُثْبان الرمال الممتدة فوق الجزيرة ، كأنها قوافل من آلام بسيشيه وأشجانها !

« ويلاه !

« لقد حُمِلْتُ إليك أيتها الجنة الصغيرة وبُرْدُك بُرْدُ الشباب ، ورَيْعانك ريعان الصبى ، وفى أعطافك تنهلُّ سُلافة الحب ، وتحت شطئانك ترقص عرائس الماء ، وفى غدرانك تترقرق أمْوَاهُ الهوى ؛ وكل مافيك تدب فيه حياة إلهية ناضرة

« أفهكذا يذبل شبابُك ، ويذوى ريعانك ، ويغيض حُبُّك

وتقفر شطئانك ، فليس يرف فوقك إلا هامة ، ولا يهتف فيك إلا صدى الوحشة ، ولا تهب ريحك إلا كأنفاس الجحيم ؟ !

« ويلاه !

« لقد كنت أفرك عينيّ أحسبني منك أيتها الجنة فى حلم ، فالآن أفرك عينيّ أرى هل أنا من خرابك اليوم فى حلم ؟ !

« لقــد نممت بالحب فوقك أيتها الجزيرة ، فلماذا لقيت أختيّ ؟ ! أين ذهبتا ؟ ! أحسبهما ذُعِرَتا من العاصفة ، وفزعتا من الزلزال ، فَفَرَّتا . . . فصبر جميل ! ! . . . »

***

هكذا ظلت تبكى بسيشيه ، وهكذا غبرت بها الأيام فوق الجزيرة تنتظر أوبة حبيبها . . . ولـكن . . . بلا جدوى ! !

وكانت تأكل ثمرات من الـكستناء تذهب بها سَغَبها ، وترشف من بقية الماء فى الغدير رشفات تبل بها أوامها ، ثم تعدو فى الجزيرة باحثة عن . . . . . لا شىء ! !

ووقفت يوماً عنــد ضفاف الغدير ترتوى ، فما شدهها إلا أن ترى الماء يزداد ويزداد ، والغدير يتسع ويتسع ، حتى تـكون على عُدْوَة نهر عظيم دافق ، تزخر أمواجه وتجرجر أواذيُّه . ويبدو لها أن تلق بنفسها فى أعماقه ، لأنها لم تعد تحتمل هذا الألم المتصل والشجن الطويل الممض . . . وإنها لتنظر الى الماء فيجيش قلبها بالذكريات ، وتفيض عيناها بالدمع ، ويشحب جبينها الـكاسف الحزين ، ثم يتأوّد غُصنها اليابس الهش ، فتنحدر الى اليم ، وتتلقفها اللجة

ولـكن رب النهر الذى كان واقفاً يسمع ويرى يسرع إلى الفتاة فينتشلها ، ويصيح ببناته عرائس الماء فيأتين من كل فج عميق ، ويترفق باللاجئة الشقية فيواسيها بكلمات تقطر حناناً وتفيض رحمة ، ثم يتركها لبناته يداعبنها ويلاعبنها

وتأنس بسيشيه الى العرائس الحلوة ، ولا يخجلها أن تأخذ معهن فى حديث حبها ، فاذا سألنها عن صفة حبيبها ، قالت : « كان صغيراً كالطفل إلا حين يكون فى ذراعىّ ، مسنداً رأسه على صدرى ، فيكون إذ ذاك أكبر من الدنيا بما فيها من مباهج ومفاتن . وكان طَيِّبَ الأنفاس ، فما قبلني أو قبّلته إلا شممت عبق الورد فى فمه ، وأرج البنفسج فى خده . وكان اذا عانقنى أو عانقته ، تحسَّسْتُ له جناحين على ظهره ، صغيرين ناعمين ،

فاذا سألته عنهما ، أنكر علىّ وصرفني برفق ودعة عن الحديث عنهما ، فنأخذ فى أمور أخَر . وكان يحمل قوساً من ذهب مانفارقه ، وكنانتين من حرير فيهما سهام من رصاص وذهب . . وما دهانى فى الليلة المشؤومة إلا أن أراه يثب من النافذة ، فيحلق فى كبد السماء كأن له قصراً فيها . . فبحق زيوس عليكن ياعرائس الا ما أعلمتُنَّني مَن هــذا الحبيب ، فأنتن بنات إلــه مبارك ، ولا بد أن يعرف أبوكن من أمره كل شىء . . . »

وصمتت بسيشيه ، ونظرت إلى العرائس فرأتهن يحدجنها بنظرات دهشة حائرة ، ثم يتهامسن ، ثم لايحرن جواباً ؛ فقالت لهن :

«أنتن تزعجنني ياعرائس ، فهل هكذا يُلقى الضيف لديكنّ ؟ »

فقالت كبراهن : « لا عليك يا فتاة ، ولـكنك كنت أتعس مخلوقة على وجه الأرض حين عصيت أمر كيوبيد ! ! »

ـ « كيوبيد ؟ ! ومن كيوبيد تعنين ! ؟ »

ـ « كيوبيد بن ڤينوس ، فهوهوالذى كان يهواكِ وكنتِ تهوين ! ! ؟ »

ـ « كيوبيد الالــه ! كيوبيد حبيبى ! ياويح لى . . . لابد أن يعود لى إلــهى الجميل الحبيب . . . لن تحلو لى الحياة بدونك يا كيوبيد . . . »

***

هامت بسيشيه على وجهها فى أقصى الأرض ، وكلما مرت بروضة أو غيضة ، وكلما وقفت عند ضفاف نهر أو ألمت بحفافى غدير ، برزت لها عرائس الماء فشكت اليهن ، وسألتهن إن كن يعرفن أين يأوى كيوبيد ؟ وقالت لها عروس :

ـ « أترين يا فتاة إلى هــذا الجبل البعيد الذى يحمل السماء بروقيه ؟ إذا كنت عنده فتلبثى حتى يعود پان[1] من صيده فتعلقى به ، واذرفى من دموعك تحت قدميه ، فاذا هش لك وبش ، فاذكرى له حاجتك يقضها لك ، أو يدلك على من عنده قضاؤها »

ـ « ومن عسى أن يكون پان يا أختاه ؟ »

ـ « رب المراعى ، وإلــه الصيد ، وحامى القنص . ألم تقربى له ؟ ألم يفعل أبواك ؟ »

(١) ورد ذكره فى بعض الأساطير باسم كونسنيس ، وما يزال الرعاة الأنجليز يغنون بحاميهم پان إلى اليوم

- « بل فعلنا . . . . »

ونهدَتْ إلى الجبل وكأنما بها عُقل من الجنون ، وجعلت تُطوِّف به حتى مالت الشمس إلى الغروب ، فرأت (پان) قادماً يدبُّ بحافريه ، ويردد فى الآكام ناظريه ؛ فلما لمحها أقبل عليها دهشاً متعجباً ، ثم أخذ يتفرس فيها كأنما بهره حسنها ، وسباه منظرها . . .

وشكت إليه ، فما هالها منه الا قوله : « تعسة ! أنت غريمة ڤينوس !! » فقالت ، وفى عينيها دموع تخنق منطقها : « غريمة ڤينوس ؟ ومالى أنا ولڤينوس ؟ » فقال پان : « جمالك هذا جنى عليك . . . لقد صرف الناس عن ربة الجمال والحب الى عبادتك أنت أيتها الشقية ، ولذلك حنقت عليك ، وأصابك من الأذى ما أصابك . . . إسمعى يافتاة . . . لقد مررت اليوم بربة الخيرات ديمتير ؛ هل تعرفينها ؟ أم پرسفونيه ، فتاة الربيع التى خطفها أخى پلوتو لتؤنسه فى هيدز ! مررت بها فسمعتها تتحدث عن كيوپيد وهيامه بك ! بك أنت ! أليس اسمك پسيشيه ؟ »

- « . . . . . . ؟ . . . . . . »

- « تحمَّلى إليها إذن . . . إنها ليست بعيدة من هنا . . . إنها شفيقة رفيقة ، وهى ترثى لأمثالك من العاشقات الوامقات ؛ تحدثى إليها عن كيوپيد واستمعى إلى ما تقوله لك وتشير به عليك . . . أترين إلى هذه الغابة الملتفة الوارفة ؟ إنها هناك تنتظر ابنتها فى أوبتها من هيدز »

وعَجِلتْ إلى الغابة ، ولقيت ديمتير الطيبة الوقور ، فانحنت تحييها ؛ وما كادت تسرد شكاتها حتى انهمر الدمع من عينيها الحزينتين ، وتخاذلت فخرَّت مغشياً عليها ! . وتقدمت ربة الخير فباركت الفتاة ، وطفقت ترش على وجهها الماء من غدير قريب ، فكان الزهر ينبت حول پسيشيه كلما انتثرت قطرات على الأرض ، فلما أفاقت ، بهرها هذا السرير الربيعى من منضور الورد يحف بها ، ويحنو عليها . . . حنو المرضعات على الفطيم !

وبسمت ديمتير ، وواسيت الفتاة الوالهة وآنستها ، ثم ذكرت لها أنها رأت كيوپيد بُكْرةَ ذلك اليوم ، وفى كتفه جرح دامٍ أحدثته فيه أمه ڤينوس ؛ لماذا ؟ لا يدرى أحد ! - « . . . فاذا كان لا بد لك من لقاء كيوپيد ، فاذهبى إلى ڤينوس وتبتَّلى إليها ، وادخلى فى خدمها وحشمها ، وأثبتى لها بتفانيك فى طاعتها أنك من عبادها المخلصين ؛ عسى يا بُنَيَّة أن ترضى عنك ، ويذهب عنك هذا الحَزَن . . . »

ثم قادتها إلى قصر ڤينوس ، وزوَّدتها بما ينبغى لها من النصح ، وعادت إلى غابتها الوارفة تنتظر پرسفونيه

وبرهنت پسيشيه على حسن إخلاصها وجميل توبتها ، وكانت ربة الحسن تسخِّرها فيما لا طاقة لبشر به ، فكانت تقوم بما تُكلَّف به وتؤديه خير الأداء

وأعجب ما حدث لها من ذلك أن أمرتها ڤينوس بالتوجه إلى هيدز - دار الموتى - واقتحامها ، ثم لقاء پرسفونيه ، ربة الربيع ، وزوج پلوتو ، وسؤالها صندوق الطِّيب الذى تدهن منه العجوز الشمطاء ، فيرتد اليها صباها ، ويتدفق ماء الشباب فى أعطافها ، وتعود كما كانت ، شرخ صبى ، وعنفوان شباب !

وأسقط فى يد پسيشيه ! ولم تدر كيف السبيل إلى هيدز ! ! ولكنها حين ذكرت پرسفونيه ، بدا لها أن تذهب فتستشير أمها ديمتير عسى أن ترشدها أو تزودها خالص نصيحتها . فذهبت إلى الغابة ، ولقيت لحسن حظها ديمتير تودع ابنتها ، لتعود أدراجها إلى هيدز ، إذ كان الربيع الحلو قد صوَّح ، وأزف الشتاء ببرده وزمهريره . . .

وهشت لها ديمتير ، وعقدت بينها وبين ابنتها أواصر الصداقة ، ولما حان موعد الافتراق ، أبدت پسيشيه رغبتها فى أن تصحب ربة الربيع لتؤنسها فى ظلمات دار الفناء ، فلم تعارض الفتاة ، بل أذنت لها راضية (١)

وسارا بين صفين من أرواح الموتى تغنى وتنشد . . . وتبكى ! !

وكم كان عجب پلوتو شديداً حين لمح الفتاة الرشيقة الهيفاء تسير إلى جانب زوجته ، وبلغ به التأثر مبلغه ، فغادر لهما غرفة العرش المظلمة . . .

وتلطفت پسيشيه فسألت مليكة هيدز صندوق الطيب الثمين ؟ ؟ فوجمت پرسفونيه ؛ وكانت على وشك أن ترفض هذا الطلب ، لولا أن ذكرت الفتاة أن ڤينوس هى التى أرسلتها لتطلبه وتجيئها به . فنهضت پرسفونيه إلى دولاب قريب ، وعادت بالصندوق ، ترتجف به يدها العاجية الجميلة ، وقدمته للفتاة وهى تقول :

(١) فى بعض المصادر أن زفيروس هو الذى قاد الفتاة الى هيدز

« لا تفتحيه . . . لا تفتحيه أيتها الصغيرة ! ! »

واستأذنت بسيشيه ، وعادت أدراجها إلى . . . هذه الدار الأولى . . .

وفى طريقها إلى قصر ڤينوس ، ذكرت كلمات ربة الجمال عما يحتويه الصندوق من دهان يرد القليل منه جمال الشباب وريعان الصبى . . . وذكرت كذلك تلك الليالى الطوال التى ظلت فيها مُسهَّدةَ العينين تبكى كيوبيد وتحن إليه ، حتى شفّها الوجد ، وأوهنها السقم ، وبرّح بها الهيام الشديد ؛ فتحدثت إلى نفسها تقول : « فلم لا أدهن بقليل منه وجهى وبَشرتى ؟ ولم لا أرتد جميلة كما كنت ، مادمت أطمع فى لقاء كيوبيد ؟ إن ربة هيدز حذرتني من فتح الصندوق ، لا أدرى لماذا ؟ فاذا كان ما به شر ، فلم تريده ڤينوس الجميلة ؟ لا ! لا بد أن أتطيب به ، وليكن بعدها ما يكون !! »

وداعبت أناملها الصندوق ففتحته . . . . ولكن . . . .

وا أسفاه ! ! لم يكن به غير هذا الروح الشرير المنكر . . . روح النوم ... ولقد وثب فى وجه بسيشيه فحلّق فى عينيها الزرقاوين الصافيتين ، ثم ماهى إلا لحظة حتى انكفأت المسكينة على الحشيش المُندّى تغط فى نوم عميق . . . ! !

***

وكان كيوبيد يتنزه فى الحدائق المجاورة ، فما دهاه إلا أن يرى ملاكه المحبوب ممدداً على الكلأ ، وصدره يعلو ويهبط ، كأن كابوساً مستقر عليه

ودنا إلـه الحب من بسيشيه ، وسرعان ما هاجت به ذكريات غرامه الأول ، وثار فى قلبه الحنين إلى الليالى المقمرة الحلوة التى كان يقضيها إلى جانب الرشأ الغرير ، الذى يترنح أمامه فى قبضة الروح الشرير . . . روح النوم !

ونظر كيوبيد بعينيه السّحريّتين ، فرأى الروح يصارع بسيشيه صراعا هائلا . . . فثارت فيه نخوة الوفاء ، وأنفذ إلى العدو سهاماً متتابعة متلاحقة ، حتى قهره ، واضطره إلى العودة من جديد إلى الصندوق الصغير ، وما كاد يستقر فيه حتى أغلقه عليه ، ودفنه فى غَوْر من الأرض

ثم تقدم الى حبيبته ، وطفق يروّح على وجهها ، ثم أيقظها بقبلة اهتز لها الروض ، وطرب الورد ، وشاعت فى الطبيعة الضاحكة أسراً وسحراً ! !

« أختاه ! ! انهضى ! أنظرى الىّ ! هأنذا كيوبيد ! هلمى فلن نفترق بعد اليوم ! ! »

***

وأغذا السير ، حتى اذا كانا فى دولة الأولمب صاح كيوبيد فى معشر الآلهة : « أن اشهدوا أيها الأرباب ، لقد اخترت بسيشيه الجميلة زوجة لى مباركة . . . . » وطرب الآلهة ، وأقيم المهرجان الفخم ؛ ورقصت ديانا ربة القمر ، وعزف أبوللو على موسيقاه ، وتقدمت ڤينوس فباركت الزوجين الحبيبين ، ورسمت بسيشيه ربة للروح الخالدة التى لاتفنى ... ومنذ ذلك اليوم وهى ترف بأجنحة فراشة جميلة فى جنة الأولمب ، والى جنبها حبيبها كيوبيد

درينى خشبة

البريد الأدبي

حول كتاب فتح العرب لمصر

عزيزى الأستاذ الفاضل صاحب (الرسالة)

قرأت اليوم فى (الرسـالة) الغراء صحيفة النقد التى تسميها (الرسالة) صحيفة « الـكتب » ، وقرأت فيها للأستاذ الجهبذ العلامة محمد بك كرد على كلمتين ، احداهما عن كتاب « فتح العرب لمصر » ؛ والثانية عن كتاب « فنون الطهى الحديث »

ولقد عنانى أن أقرأ ما كتبه الأستاذ الفاضل عن كتاب فتح العرب لمصر بنوع خاص ، لأن ذلك الـكتاب حبيب إلى نفسى لصيق بها . ورأيت الأستاذ الفاضل يذكر عن الـكتاب بعض حسناته فشكرت له ذلك ، فالـكتاب جدير من الناطقين بالعربية بكل تقدير واعجاب ، إذ هو مثل عال من أمثلة البحث الدقيق العادل ، فوق ما يمتاز به من قوة الأسلوب وجماله فى لغته

ثم عرج الأستاذ على الترجمة والمترجم ، فتفضل بأن وصف المترجم بأنه اعتنى عناية شديدة « بتجويد ترجمته على صعوبتها لما حوت من النقول العربية وغيرها من اللغات ليرد الوثائق إلى أصلها » . ثم ذكر ما سماه تحريفاً فى الأسماء ، وذكر من ذلك أمثلة

على أنى وإن شكرت له قوله إن المترجم قد عنى بالترجمة عناية « شديدة » أرجو أن أراجعه فى زعمه أن ترجمة (Edessa) تكون محرفة إذا قلنا هى « اذاسا » ، فان اطلاق ذلك الاسم على المدينة كان مقصوداً ، فالمدينة معروفة بالرها وبأذاسا ، والاسم الثانى أقرب إلى التسمية العامة فى اللغات المختلفة ، فكان هذا سبباً فى تفضيل « أذاسا » على الرها ؛ وأما برجاموس أو فرغاموس فلا أدرى وجه التحريف فيها ، فان الباء والفاء والجيم والغين كانت دائماً موضع اختلاف فى وضع العرب للأسماء ، ولاسيما المحدثين منهم ، وقد آثرت أن أكتب الاسم بالعربية قريباً كل القرب من الاسم القديم الذى كان ولا يزال معروفاً يطلق على المدينة التى كانت فى آسيا الصغرى . وأما « افسس » و « افيسوس » فلم أفطن إلى وجه التفرقة بينهما ، ولا إلى وجه التحريف فى الاسم الذى أوردته فى الترجمة ، فليس بين الـكلمتين من فارق إلا اثبات حركات الـكلمة على النحو الذى يسهل النطق بها

على أن الأستاذ الفاضل لم يكتف بعد ذلك بتوجيه النظر إلى هذا التحريف الذى زعمه ، بل ذكر كلمة عامة عن « هنات قليلة » لا يخلو منها كتاب منقول إلى لغتنا من لغة أعجمية ؛ وكنت أود أن يجمل حضرته من ذلك الوجه بحثاً فيما يوجه فيه الترجمة وجهة صالحة ، غير أنه اكتفى بالتعميم والاشارة والايجاز فى موضع كان الأوجب فيه الافاضة والاطناب ، ذلك بأن عمل المترجم إن هو إلا النقل ، وما يكون نقله جديراً بالتقدير إلا إذا سلم من العيوب التى تؤخذ على أساليب اللغات الأعجمية . ولعل اشتغال الأستاذ الفاضل بالـكتابة عن الـكتاب الآخر (فن الطهى الحديث) فى نفس اليوم قد جعله لا يجد الوقت لذكر شىء من تلك الهنات ، فرجاؤنا أن يتفضل باعادة الـكرة وبيان ما أجمل ؛ ورجاؤنا كذلك أن يبين وجه النقد حتى نكون على بصيرة من رأيه ، نفعنا الله بعلمه وفضله وعلم أمثاله من أعلام العلماء ؟

محمد فريد أبو حديد

وفاة دريفوس

من أنباء فرنسا الأخيرة أن الـكولونل ألفرد دريفوس قد توفى فى الخامسة والسبعين من عمره ، ولم يشتهر فى تاريخ فرنسا المعاصر اسم بقدر اسم دريفوس ، ولم يقترن باسم آخر مثل ما اقترن به من الحوادث والحركات العظام ؛ كان اسم دريفوس منذ أربعين عاماً ملء الأسماع فى فرنسا والعالم بأسره ، وكانت القضية الشهيرة التى ارتبطت باسمه ، واتهم فيها ظلماً بالخيانة ، أعظم قضية عرفها التاريخ من حيث اتساع مداها ، وتشعب نواحيها ، وتعقد إجراءاتها ، وما أثارته مدى عشرة أعوام فى فرنسا من الأحقاد والشهوات التى كادت تزلزل أسس الحياة العامة فيها وتثير ضرام الحرب الأهليـة . وقد كان دريفوس يهودياً ، وهو سر المسألة كلها ؛ فقد كانت الخصومة السامية أو حركة العداء ضد اليهود

يومئذ على أشدها فى معظم البلاد الأوربية ، وكانت الكنيسة والعسكرية فى فرنسا تضطرمان بهذا العداء ، وكانت قضية دريفوس نفثة من نفثات هذه الحركة التى أريد بها القضاء على نفوذ اليهودية فى السياسة والجيش ؛ فاتهم دريفوس الضابط اليهودى (سنة ١٨٩٦) بالخيانة العليا ، وبأنه يقدم إلى بعض البلاد الأجنبية (ألمانيا) معلومات عن الدفاع الفرنسى ، وضبطت ورقة سميت فيما بعد « بالبردرو » نسبت إلى دريفوس ، وحوكم الضابط البرىء وقضى عليه ظلماً بالنفى إلى جزيرة الشيطان ؛ ولكن العدالة لم تعدم أنصاراً ؛ فقد أثار خصوم العسكرية وخصوم الكنيسة على هذا القضاء الظالم دعاية شديدة ؛ وبذلت جهود قضائية وسياسية فادحة لتبيان براءة الضابط اليهودى ، وتبين فيما بعد أن « البردرو » قد زُور عليه ؛ وما زالت المعركة بين « الدريفوسيين » وبين الوطنيين خصومهم تضطرم وتنتقل من دور إلى دور حتى تقرر إعادة النظر فى القضية مرة بعد مرة ؛ ونزل إلى المعركة كتاب عظام مثل فرانسوا كوبيه فى جانب الوطنيين ، وأميل زولا فى جانب « الدريفوسيين » ؛ وأرسل اميل زولا صيحته الشهيرة : « إنى أتهم ! » ؛ أى يتهم القضاء والعسكرية بالتآمر والتزوير ، واستمرت المعركة نحو عشرة أعوام أعيد النظر خلالها فى القضية عدة مرات ، وانتهت أخيراً محكمة النقض بأن قضت ببراءة الضابط اليهودى (سنة ١٩٠٦) وردت اليه مراتبه وحقوقه ، وأسدل الستار على تلك المأساة الشهيرة التى هزت حياة فرنسا العامة أعواماً طوالاً

هذا وسنفرد فى فرصة قادمة فصلاً خاصاً لهذه القضية الشهيرة ، التى تعتبر من أعظم قضايا التاريخ

السخاوى

سيدى الأستاذ . . قرأت بالرسالة بالعدد ١٠٤ كلمة الأستاذ البحاثة مقريزى هذا المصر محمد عبد الله عنان فى ترجمة السخاوى مالفظه : (ونجد أخيراً فى تراث السخاوى أثرين من نوع خاص ولهما أهمية خاصة ، وقد انتهى كلاهما إلينا : أولهما كتاب تحفة الأحباب وبغية الطلاب . فى الخطط والمزارات والبقاع المباركات) الخ . . .

والواقع أن هذا الكتاب كما ذكر العلامة النبهانى فى كتابه (جامع كرامات الأولياء) ليس للحافظ السخاوى إذ قال عاطفاً على ما استمد من الكتب ما لفظه : (وتحفة الأحباب فى الكلام على الأولياء المدفونين بمصر للسخاوى من أهل القرن التاسع وهو غير الحافظ السخاوى) اه وذلك لأنه ذكر فى فاتحته أن اسمه محمد بن احمد الحنفى ، وقد ذكره ابن مخلوف فى طبقات المالكية وأنه فرغ من تأليفه سنة ست وخمسين وتسعمائة ، وأنه كان حياً سنة ستين وتسعمائة ، فنسبة كتاب تحفة الأحباب للحافظ السخاوى المتوفى بالمدينة المنورة سنة تسعمائة واثنتين خطأ دخل على كثير من أهل العلم يجب ألا يضيع ولا يفوت على البحاثة عنان . . فلذلك لزم التصحيح ، وانى أحيل الأستاذ عنان على كتاب مصرع الامام الحسين ليزداد علماً والسلام ؟

(جرجا) محمود عساف أبو الشباب

منتدى النشر بالنجف

تألف فى النجف هذا المنتدى من صفوة العلماء والأدباء للسعى إلى تعميم الثقافة الاسلامية والعلمية ، وإحياء لغة الضاد ، ونشر المعارف الدينية والأخلاقية فى ربوع البلاد بكل ما لديه من شتى الوسائل المشروعة

وها هو ذا اليوم فى أول أدواره يضع الخطط التى تساعده على إنجاز مهمته المالية وتحقيق رغبته المنشودة ومن بينها دعوة العلماء والمؤلفين إلى مشاركته ومساعدته بأقلامهم وثروتهم العلمية

ويذيع مجلس إدارته أنه مستعد من الآن لتلقى كل سؤال أو استفتاء دينى أو علمى يرد عليه فيحيله الى اللجنة المختصة للنظر فيه ولاستجواب العلماء ممن تشرف المنتدى بانتسابهم اليه ومن غيرهم من العلماء الأعلام

المؤتمر الدولى السادس لتاريخ الأديان

قرر مجلس الوزراء اشتراك الحكومة المصرية فى المؤتمر الدولى السادس لتاريخ الأديان الذى سيعقد بمدينة بروكسل بين ١٦ و ٢١ من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٥ ، وندب الأستاذين مصطفى عبد الرازق وأمين الخولى لتمثيل الحكومة فى هذا المؤتمر ؛ وربما مثلا الأزهر بعد ذلك فى المهرجان الذى ستقيمه جامعة بودابست فى أخريات شهر سبتمبر بمناسبة احتفالها بالعيد المئوى الثالث على انشائها

أحب شاعرة الى الانكليز

احتفل أخيراً فى انكلترا بالذكرى المئوية لوفاة مسز «هيمانس» الشاعرة المؤثرة التى تعرف فى الأدب الانكليزى «بحبيبة انكلترا»

وكانت وفاتها فى مايو سنة ١٨٣٥ . وهى شاعرة العواطف ، وشاعرة الأمومة الرقيقة ، ومسرات الأسرة والورع والرضى ؛ وما زال شعرها الرقيق فى كتابها «كازابيانكا» و«قبور العائلة» مثالاً للنظم الأنيق المبدع الذى يملأ القلب سحراً وتأثراً . وكانت مسز هيمانس أستاذة للخيال الواضح والصور الرقيقة والانفعالات العميقة ؛ وكانت تتبوأ فى عصرها مقاماً عظيما فى الشعر ، ولو أن أسلوبها اليوم قد عفا ؛ وكانت ثقافتها الواسعة ، ومواهبها الفنية موضع الاعجاب ، وكانت تشتهر بالأخص بخلالها الرفيعة وجلدها ورقتها وتواضعها ، حتى كانت تحمل عباقرة العصر مثل وردسورث وشيللى وبروننج ويبزون على احترامها وإكبارها . وكانت ظروف حياتها المؤثرة تزيد فى هذا التقدير ، فقد كانت مسز هيمانس تنظم لتعيش ، ولم يكن يهمها اختيار الجيد من الشعر ، وإنما كان يهمها اختيار أكثر النظم قبولاً وانتشارا

وقد قطعت مسز هيمانس حياة قصيرة مؤثرة . فقد تزوجت الكبتن هيمانس فى الثامنة عشرة ، ولم تمض ستة أعوام حتى رزقت منه أربعة أولاد ، ثم لم يلبث أن غادرها وحيدة . وهنا يبدو نبل هذه الشخصية ، فقد احتملت كل أعباء الحياة صابرة جلدة ، لا يضلها جمالها الباهر عن الطريق السوى ؛ وسرعان ما ذبل هذا الجمال فى حياة ملئها الشجن وهموم الأسرة ؛ وفى سن الحادية والأربعين غادرت مسز هيمانس هذه الحياة بعد أن طبعت أمومة العصر بطابعها ، وتركت لجنسها تراثاً مازال يحمل على التقدير والاكبار

استدراك

كتب إلىّ جماعة يسألوننى عن مؤلفات الشيخ بدر الدين الحسنى رحمة الله عليه فحققت عنها فاذا هى قد احترقت مسوداتها حين احترقت مكتبة الشيخ . ولست أعرف للشيخ مؤلفاً باقياً .

أما الفقرة التى سقتها بين يدى مقالتى عن الشيخ فى (الرسالة) الخامسة بعد المائة فهى من ترجمة الشيخ المنشورة فى جريدة ألف باء الدمشقية صبيحة وفاته مكتوبة بقلم أستاذ كبير من كبار تلاميذ الشيخ رحمه الله

وقد كتبت هذا التنبيه كيلا يسجل فى (الرسالة) ما يوهم غير الحقيقة . و (الرسالة) سجل خالد . ومن حق (الرسالة) على كتابها ألاّ يكتبوا فيها إلا حقيقة ، ومن حق قرائها عليها ألاّ يجدوا فيها إلاّ حقيقة

علي الطنطاوى

نظريات جديدة

(بقية المنشور على صفحة ١١٩٠)

الجماعة . وعلى هذا فان الملكية الفردية لا تجب حمايتها إلا بقدر ما يبديه المالك من السداد فى ادارتها بحيث تعاون فى تحقيق الخير العام . وفى القانون الفرنسى ما زالت تعرف الملكية بالتعريف الرومانى القديم ؛ فهى الحق فى أن تتمتع بشىء وأن تستعمله أو تسىء استعماله ؛ والواقع أن هذا الحق قد قيد فى العهد الأخير بقيود ما زالت فى ازدياد . ولكن الهتلريين يرون الغاء المبدأ ذاته ؛ فالملكية الفردية لا يعترف بها ، وانما يعترف بوضع اليد على الأملاك ، بشرط ألا يتصرف الفرد فيها إلا فى صالح الدولة

وكذلك الأسرة تحميها نفس المبادىء العامة ؛ فانه يحظر على كل فرد « أن يتلف أو ينقص كفايته لانتاج النسل »

وقد ذهب الهتلريون بعيداً فى تحديد واجب الفرد نحو الأمة ، فقرروا أن التضامن اجبارى

تلك هى الأسس الجديدة لهذا التشريع الهائل ؛ وقد اتبع المشترعون الألمان اجراءات محاكم التحقيق (التفتيش) لكى يصلوا الى غايتهم بأية وسيلة ، وهى تحقيق خير الجماعة القومية وسيادتها ، فجعلوا من القاضى شخصية مطلقة السلطة ، وجعلوه مشرفاً دائماً على أخلاق الفرد ، فمن يحاول غير الزعماء أن يميز نفسه من المجموع ، كان عرضة للقبض والعقاب

واذا كان فى هذه المبادىء ما يروع ، فذلك لاننا منذ عصر الأحياء ، ومنذ عصر الثورة الفرنسية بنوع خاص ، قد شهدنا القوى الفردية تنمو وتتسع إلى أعظم حد ، ولم يفعل الاصلاح الاشتراكى فى عصرنا شيئاً لوقفها . واليوم وقد انتهت الفردية إلى هذا الافراط ، فان الرجعة التى كانت تبدو مستحيلة بالأمس تصبح اليوم محتومة . ذلك أن الحرب ، والأزمة الاقتصادية ، وروح الأثرة المتسلطة على المنتجين ، وكبرياء عظماء الفنانين ، قد أدت إلى الرجعة الجماعية الحاضرة ؛ وسوف تنتهى هذه النزعة بلا ريب الى صنوف جديدة من الافراط ، والى تناسق لا يطاق . ولعلنا نرى الفردية والنزعة التعاونية وهما النزعتان الجوهريتان المتناقضتان اللتان تتجاذبان الانسان ، تنتعشان ، وتشرفان بالتناوب على الحركات الاجتماعية ، دون أن يتحقق بينهما توازن ما ؛ والتوازن كمال يناقض الحياة ذاتها (...)

الكتب

١ — مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين :

لأبى الحسن الأشعرى [1]

٢ — التيسير فى القراءات السبع :

لأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى [2]

للأستاذ محمد بك كرد على

فى مطبعة الدولة فى استانبول طبعت لجنة « النشريات الاسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية » هذين الكتابين المعتبرين . نشر الكتاب الأول منهما : العلامة ريتر . وكتب الأشعرى مفخرة أهل السنة والاستقامة على كثرتها لم يطبع منها سوى كتابين فى الهند : « الابانة عن أصول الدين » و « استحسان الخوض فى الكلام » وهذا الكتاب فى مقالات الاسلاميين ، هو الذى عني بتصحيحه والتعليق عليه ، ووضع فهارسه السيد ريتر ، وقال فيه : إنه مهم فى بابه لمعرفة فرق أهل الاسلام ، لأن تأليفه أقدم من « الملل والنحل » للشهرستانى و « الفرق بين الفرق » لعبد القاهر البغدادى و « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم الظاهرى ، وأن الأشعرى أدرك المتأخرين من المعتزلة وغيرهم من أهل المذاهب ، فاضطر فى نقل بعض ما ينقله عن أوائلهم إلى الأخذ من الكتب المؤلفة قبله فى مقالات الناس مثل مقالات الكعبي والكرابيسي واليمان بن رباب وزرقان وغيرهم ، وهذه قد ضاعت كلها

وقد علل الناشر ضياع الكتب بقوله : إنه كلما كان الكتاب أقدم عهداً كانت نسخه أعزّ وجوداً وأقل عدداً ، وذلك لعدة أسباب : منها استيلاء الفناء عليها بتقادم العهد ، وجريان حكم الزمان عليها بالمحو والافساد ، ومنها ضياعها وتلفها عند استيلاء الأعداء على البلاد وجنايتهم على الكتب بالاحراق والاغراق ، ومنها اعتداء بعض أهل المذاهب على كتب مخالفيهم ، ومنها أن المعلمين والمدرسين الذين كان جلُّ همهم أن يضبطوا قواعد كل علم بأقصر لفظ ، عمدوا إلى تهذيب مؤلفات من سبقهم ، وتنسيق المباحث وترتيبها ، ووصل كل بحث بما يجانسه ، وضم كل فرع الى أصله واختصروها إيثاراً للايضاح والتقريب ، وتسهيلاً للتعليم والتعلم ، فآثر المحصلون كتبهم على الكتب القديمة من أجل ذلك فصارت المؤلفات السابقة كأنها منسوخة باللاحقة فتركت ونسيت

وكتاب مقالات الاسلاميين بحث مستوفى فى المذاهب والفرق الاسلامية ، لم يستعمل فيه مؤلفه السباب والمهاترة على ما وقع فى مثل ذلك ابن حزم والبغدادى وغيرهما ممن كتبوا فى مناقشة أهل الأهواء وأصحاب المقالات . فالأشعرى عمد الى لسان العلم يستخدمه فى ذكر مقالات مخالفيه ؛ وقد حوى كتابه فوائد تاريخية وسياسية ولاسيما فى تدوين وقائع من طالبوا بالخلافة من العلويين فى كل عصر ، وفى أحكام الإمامة واعتقاد أهل الفرق فيها ، وفى الحكمين والحكم عليهما بما فعلا . أطلق فى كل ذلك العنان لقلمه حتى لا تكاد تستبين أن المؤلف خالف أصحابه المعتزلة فى شىء ، بل هو معتزلى تربية ومنشأ ، وربما جاءه الفيض من الأخذ عن علمائهم ، وإلا كان فقيهاً عادياً من فقهاء عصره ومحدثيه

وفى الكتاب وصف دقيق لمسائل علم الكلام وما اختلف فيه أرباب المذاهب ، كتبه بلهجة سلسة يتفهمها لأول وهلة حتى من ليس له أنسة بمثل هذه الأفكار والعبارات ، وذلك لأن المؤلف هضم ما تعلمه وتمثله ، فوصفه بدقائقه وصفاً قرّبه من الأذهان . وهذه الموضوعات من أبحاث قدماء العلماء ، واليوم لا يهتم لها إلا خواص الناس ومن هم بسبيلهم من طلاب العلم الدينى

والكتاب فى مجلدين بلغا أكثر من ستمائة صفحة ، هذا عدا الفهرس الذي وضعه الدكتور ريتر فى أسماء الرجال والنساء ، ذكر فيه المكان الذى وردت فيه تراجمهم تسهيلاً على القارىء

(١) مات سنة نيف وثلاثين وثلثمائة (٢) المتوفى سنة ٤٤٤ هـ

وهناك فهرس بأسماء الفرق والطوائف، وثالث بأسماء البلدان والأماكن. وقد تجلى التوفيق والعناية في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب الذي يعدُّ بلا جدال من الأمهات في هذا الموضوع

***

الكتاب الثاني هو « التيسير » في القراءات السبع للامام أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، نشره العلامة برتزل وقال في المقدمة التي وضعها له بالعربية: « إن علم قراءة القرآن أقدم العلوم الاسلامية نشأة وعهداً، وأشرفها منزلة ومحتداً، وكان أول ما تعلم الصحابة من علوم الدين حفظ القرآن وقراءته، ثم لما اختلف الناس في قراءة القرآن وضبط ألفاظه مست الحاجة إلى علم يميز بين الصحيح المتواتر، والشاذ النادر، ويتقرر به ما يسوغ القراءة به وما لا يسوغ، وقاية لكلماته من التحريف، ودفعاً للخلاف بين أهل القرآن، فكان ذلك العلم علم القراءة الذي تصدر لتدوينه الأئمة الأعلام من المتقدمين

قال وفي الحق إن تدوين علم القراءة أفاد المسلمين فائدة لم تحظ بها أمة سواهم، وذلك أن البحث في مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجوهها الصحيحة لتتيسر تلاوة كلمات القرآن على أفصح وجه وأبينه، كان من أبلغ العوامل في عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها، وكانت ثمرة هذا الاجتهاد والجهد أن القراء تشربوا مزايا اللغة العربية وقواعدها ودقائقها. ومما يؤيد ذلك أن الكثيرين من قدماء النحويين كانوا مبرزين في علم القراءة، كما كان الكثيرون من أئمة القراء كأبي عمرو والكسائي بارعين في علم النحو

ويرى الناشر أن على كل من يتصدى للنظر في تاريخ اللغة العربية ودرس المسائل التي تتناولها كتب النحويين، أو للبحث في تنوع اللغات واختلافها بحسب الأقطار والأمصار، ينبغي له أن يتتبع علم القراءة والتجويد، ومن شرع في درس معاني القرآن، واستقصاء لطائفه واستخراج حقائقه، ثم اعتمد على القراءة الوحيدة التي يجدها في المصحف الذي بين يديه فقط من غير التفات إلى روايه الأئمة الآخرين؛ فقد غفل عن أمر ذي بال اهـ

والمؤلف كان شيخ مشايخ المقرئين في الأندلس، رحل في أخذ القراءات عن الأئمة في الشرق « وكان هو من الأئمة في علم قراءة القرآن، وطرقه ورواياته وتفسيره ومعانيه وإعرابه، ولم يكن في عصره ولا بعده من يضاهيه في قوة حفظه وحسن تحقيقه، ونقل عنه أنه كان يقول: ما رأيت شيئاً قط إلا كتبته، وما كتبته إلا حفظته، ولا حفظته فنسيته؛ وكان أيضاً عارفاً بعلوم الحديث وطرقه وأسماء رجاله، وبارعاً في الفقه وسائر أنواع العلوم » خلف فيما قيل مائة وعشرين مصنفاً، لا يزال بعضها محفوظاً في بعض خزائن الكتب في الغرب والشرق، واعتمد الناشر في طبع كتاب التيسير على ست نسخ منها ما هو في دار الكتب ببرلين وفي دار الكتب في مونيخ وفي خزانة لَيْدن وبعض خزائن استانبول

وكتاب التيسير كما قال فيه مصنفه مختصر في مذاهب القراء السبعة بالأمصار، يتضمن من الروايات والطرق ما اشتهر وانتشر عند التالين، وصح وثبت عند المتصدرين من الأئمة المتقدمين. افتتح كتابه بذكر أسماء القراء والناقلين عنهم، وأنسابهم وكناهم وموتهم وبلدانهم، واتصال قراءتهم وتسمية رجالهم، واتصال قراءتنا نحن بهم، وتسمية من أداها إلينا عنهم رواية وتلاوة وأتبع ذلك بذكر مذاهبهم واختلافهم

دمشق — محمد كرد علي